

الطبعة
2





الكيالي
بين تزييف العلم ومقاصد القرآن

بقلم
أ. د. محمد باسل الطائي
جامعة اليرموك - الأردن

تقديم
د. محمد العوضي

الكيالي بين
تزييف العلم ومقاصد القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

الكيالي بين
تزييف العلم ومقاصد القرآن

الأستاذ الدكتور محمد باسل الطائي
جامعة اليرموك الأردن

تقديم
الدكتور محمد العوضي



الكيالي بين تزييف العلم ومقاصد القرآن

الدكتور محمد باسل الطائي

رواسخ 2019

126 ص ؛ 23.5 سم.

الترقيم الدولي: 8-8-9703-9921-978



الكويت - شرق - شارع أحمد الجابر - برج الجاز

هاتف: 0096522408686 - 0096522408787



• مركز غير ربحي مختص في معالجة القضايا الفكرية المعاصرة وفق أسس عقلية وعلمية منهجية.

• يسعى لإيجاد خطاب علمي مؤصل من خلال تأليف وترجمة الكتب والبحوث التأصيلية والحوارية.

• يُعنى بإقامة الدورات والندوات، وإنتاج المواد المرئية النوعية.

• يستهدف بخطابه المهتمين بالمعرفة من مختلف شرائح المجتمع.

الفهرس

الفهرس

شكر وتقدير

إنه لمن دواعي سروري أن أتقدم بجزيل الشكر وتقدير العرفان إلى الدكتور محمد العوضي الرئيس التنفيذي لمركز رواسخ للدراسات على عنايته بنشر هذا الكتاب، وتشجيعه نشر العلم والمعرفة الصحيحة، والانفتاح على الأفكار المستنيرة. كما أشكر الأخ الأكرم جاسم الصالح مدير عام مركز رواسخ على عنايته وكرمه وخدمته الجليلة لدعم مبادرة إعداد هذا الكتاب.

مؤلف هذا الكتاب

هو البروفيسور محمد باسل الطائي أستاذ الفيزياء الكونية بجامعة اليرموك. حصل على الدكتوراه في نظرية النسبية العامة، ونظرية المجال الكمي، من جامعة مانشستر في بريطانيا عام 1978، حيث أجرى أبحاثاً لحساب طاقة الفراغ الكمي في فضاء أينشتاين. ونشرت أبحاثه في مجلة Physical Review D الأمريكية، ومجلة Journal of Physics A البريطانية الأوروبية، وغيرها من الدوريات العالمية.

عمل في التدريس والأبحاث بجامعة الموصل بالعراق عشرين سنة، ثم انتقل عام 1999 إلى الأردن فأصبح أستاذاً للفيزياء الكونية بجامعة اليرموك، وخلال مسيرته الأكاديمية نشر ما يزيد على 35 بحثاً في الفيزياء الكونية، والثقوب السوداء، والمادة المظلمة، والنماذج الكونية. كما نشر 10 كتب علمية وفكرية منها كتابان باللغة الإنجليزية صدر أولهما في الولايات المتحدة الأمريكية، وصدر الثاني في بريطانيا.

شارك البروفيسور الطائي بعشرات المؤتمرات العلمية العالمية في مواضيع الفيزياء، ومواضيع العلم والدين، وقد تمت دعوته إلى دول عديدة لإلقاء محاضرات عن آرائه وأفكاره حول العلم والإسلام.

للبروفسور الطائي قناة على اليوتيوب تحوي مقاطع علمية وفكرية على الرابط:

https://www.youtube.com/user/Baseltai?ob=0&feature=results_main

عبثيات الكيالي...!

ما موقف المسلم إذا وجد تعارضًا بين كلٍّ من نصوص الدين ومقررات العلم؟ هل يقدِّم العلم على الدين، أم ينتصر للدين على حساب العلم؟

ذاك هو السؤال الذي أطرحه دائمًا على الطلبة في كل فصل دراسي جديد، سواء في تدريسي مقرر (الثقافة الإسلامية) العام، أو مقرر (القرآن والعلم). وقد لاحظت أن الإجابة الأكثر ورودًا وتكرارًا من الطلبة هي: علينا أن (نقدِّم الدين على العلم).

وإذا أجابوا هم بذاك الردّ المتوقع، عقّبتُ أنا بسؤالٍ استنكاريٍّ: هل أفهم من إجابتكم هذه أنكم تقرُّون بإمكانية أن يناقض الدين العلم؟!

وهنا يصابون بـ (فقدان التوازن الاجتماعي)[1] كما يعبر المفكر جودت سعيد في دراسته التفصيلية لذات الإشكالية؛ فإنّ انتماءهم للإسلام، وإيمانهم بعصمة القرآن من الخطأ، يمنعانهم من تقديم أي دعوى معارضةٍ له عليه، ولكنهم في الوقت ذاته يحارون في إيجاد مخرج من العجز عن التوفيق بين حقائق العلم، ويقينهم بحقائق إسلامهم! ولذلك تكون إجابتهم -عادة- مضطربة في فهم معنى عصمة النصّ المقدس، وعلاقة ذلك بحقيقة إدراكنا لحقيقة عالم الطبيعة.

ولتصويب مسار الفهم، فإن أول ما أبدأ به في الإجابة على السؤال الإشكالي السابق حول (تناقض الدين والعلم) سواء في حديثي مع الطلبة، أو في حواراتي مع أبناء الجيل الجديد، هو التوطئة للجواب ببيان أهمية إحكام منهج البحث، وطرق التفكير السليم الذي ينبغي أن يسبق الإجابات المتفرقة على الأسئلة المتناثرة؛ وذلك من خلال تعلّم طرائق محاكمة المقولات الجدلية، كمقولة العلاقة بين العلم والدين، بأن يبدأ النظر أوّلًا بالبحث في دلالات المصطلحات مثل (العلم) و(الدين)... فعن

(1) فقدان التوازن الاجتماعي، جودت سعيد، نشر دار الفكر المعاصر، 1993م.

أيّ دلالة اصطلاحية للعلم نتحدّث: (العلم كمقابل للجهل، أم العلم كمقابل للظن والشك والوهم، أم العلم بمعنى النسق المعرفي كعلم التاريخ، أم العلم بمعنى البحث في قوانين الطبيعة؟ وفي أيّ علم من علوم الطبيعة نخوض؟ وفي أي سياق تاريخي نتحدث؟

إنّ علينا أن نستهلّ حديثنا ببيان أنّ مفردة العلم واسعة المجال الدلالي؛ بما يُلزمنا أن نحدّد بدقة «العلم» الذي نقصده بكلامنا، بدلًا من الاستسهال والاختزال والتداول الشِّعاراتي لهذا المصطلح البراق ... **فما المقصود بالعلم؟**

العلم باعتباره محاولة لفهم عمل أشياء الطبيعة تحت سلطان القوانين، يضم الحقيقة العلمية، والنظرية العلمية، والفرضية، والقانون، والأنموذج، ...، فليست كلّ دعوى يدّعيها عالم في شأن سير المنظومة الكونية، هي حقيقة نهائية، أو قول جازم؛ ولذلك يجب علينا أن ندرك مقام هذه الدعوى العلمية في تقسيمات العلماء السابقة للتفسير الطبيعي للكون، وتمييز قطعيات العلوم من ظنياتها، بل قد يقتضي البحث العودة إلى السؤال الأول في الإبستيمولوجيا، وهو إمكان المعرفة ذاتها؛ فهل نحن نملك أن ندرك حقيقة العالم، أم أنّ آخر أمرنا أن ندرك ظواهر الوجود كما تنطبع في أذهاننا؟ أي «الفينومين» بعبارة عمانويل كانط؛ ليكون العلم مجرّد ممارسة براغماتية بحتة لا تريد التوصّل إلى حقيقة الوجود، وإنّما تكتفي بتوظيف الطبيعة لخدمة الإنسان.

الأمر إذن جد وليس بهزل، في جميع أبواب الحديث عن العلم، خاصة مسائل اليقين العلمي، ولعل في نقض العلماء لإجماعات علمية[1] مستقرة، وسحب الاعتراف بأخطاء بحوث علمية نالت جائزة نوبل، برهان على أنّ الحديث في العلم ومقولاته، ليس من مباحث الهذر، وإنّما يستدعي أناة طويلة قبل إطلاق الدعوى

(1) انظر نماذج من نسخ إجماعات علمية واستبدالها بغيرها: كتاب كيف بدأ الخلق، د.عمرو شريف، ص255، الطبعة الأولى 1432هـ يناير 2011م.

وحصد لوازمها.

ومثال ذلك ما اعتقده يوهانس فيبجر أن دودة سبيروبيترا كارسينوما هي المسبب الأول لسرطان المعدة، وأثبت ذلك تجريبياً على الفئران، وعليه حاز على جائزة نوبل في الطب بعد منافسة شديدة مع العالم الياباني كاتسو سابورو، لكن تبين لاحقاً بعد مراجعة تجاربه ببحوث مستقلة أن يوهانس فيبجر كان على خطأ، وأن الفئران التي نشأ فيها السرطان كان سببه نقص فيتامين أ، وليس ابتلاع دودة سبيروبيترا كارسينوما كما كان يسميها.

وإذا كان المهندس الكيالي قد اختار -بإسرافه في إطلاق عبارة (ثبت علميًا)- أن يبهرج أضاليله إغواءً للجماهير؛ فعلينا نحن البيان - ولو باختصار-، بكشف أنّ التفسيرات الطبيعية -عامةً- على ثلاث مراتب:

1. ما ثبت علميًا بتكرار مشاهدة نتائج مطَّرِدة لحادثة معينة تجعلنا نحكم بوجود علاقة علميّة يقينيّة بين الظاهرة الطبيعية، وما احتفّ بها من أحوال، مثل تمدد الحديد بالحرارة.
2. ما اضطربت فيه التجارب، بين تأييد ونقض، وذاك يستدعي التوقّف عن الجزم أو الترجيح، والبحث عن تفسير مطّرد لا ينتقض.
3. ما ثبت علميًا أن نظريةٍ ما تستطيع تفسير أكبر قدر ممكن من الظاهرة الطبيعية المدروسة، وهذا باب للترجيح لا القطع.

فالقول العلمي إذن لا يستحق أن يوصف أنّه «حقيقة علميّة» لمجرّد تداوله على الساحة العلمية، أو شهرته على ألسنة رموز ما يُعرف بالعلوم المبسطة Popular science التي خرجت عن جادة تقريب العلوم لغير المتخصصين، إلى اختطافها من غير المتخصصين لإفساد الثقافة الشعبية، كما هو حال بيل ناي Bill Nye في أمريكا، والمهندس الكيالي في العالم العربي.

ذاك ما تعلّق بأمر العلم، وحقيقة مفهومه، وما يبلغ أن يوصف فيه أنّه حقيقة، وأما

بالنسبة لمفهوم (الدين) فبعد تعيين الدين الحق -وهو في اعتقادنا هنا (الإسلام)-، والكتاب المعصوم -وهو في مذهبنا القرآن الكريم-، علينا أن نبحث في دلالات الآيات لغةً، أهي قطعية أم ظنيّة؟، وكذلك الأمر في الحديث النبوي الذي علينا أن نبحث في صحّته أولًا، ثم في مبلغ الجزم به، أي هل هو يفيد غلبة الظن، أم يفيد العلم (أي اليقين الجازم)؟ وذاك باب من العلم واسع، كتبت فيه المطوّلات، واختلفت الأفهام في عدد من أبوابه، وما زال أهل النظر والتحقيق يُبدِئون فيه ويعيدون.

وللأسف، ابتُلي الجو الثقافي عندنا بفتنة المنصّات التي لا ترعى للعلم حرمة، وتضرب بالأمانة العلمية عرض الحائط؛ فتقدّم أنصاف المتعلّمين والثرثارين لصياغة وعي الجماهير، بدعوى أنّها تدعم محاولات تنتصر للدين (الإسلام)، وتؤكد ربانية مصدره من خلال توظيف العلوم الطبيعية، من منطلق أن (الكون كتاب الله المنظور، والقرآن كتاب الله المسطور، ويستحيل أن يتعارضا ومصدرهما واحد وهو الإله ذو الكمال المطلق).

وهي كلمة حق مُسخ معناها في الأذهان بفعل عدم الوفاء بحقوقها المعرفيّة.

ولما كان هذا الحقل المعرفي (علاقة الدين بالعلم) دقيقًا وحساسًا وسلاحًا ذا حدين؛ فإن التروي والتحوط فيه من أوجب الواجبات قبل الولوج في هذا الباب، بصرف النظر عن المقاصد الحسنة والنوايا الصادقة للمجتهدين فيه.

وإذا كان من الطبيعي أن يقع الخطأ في الاجتهاد مِمَّن يحاول التوفيق بين نصوص الدين ومكتشفات العلوم الحديثة، بتأويلٍ بعيد للنصوص الشرعية، أو باستيعاب ضعيف أو خاطئ للمسائل العلمية، فإن التكلُّف المتعسّف في فهم العلم والدين معًا ليولِّد منهما مدعي الاجتهاد رأيًا شاذًا ينكره الدين، ويتبرأ منه العلم؛ عاقبته وبالٌ على الدين والعلم معاً، بما يستحق أن يدرج في خانة (تزييف العلم ومقاصد القرآن)، وهو العنوان الذي اختاره أ.د. محمد باسل الطائي للكتاب الذي بين يديك؛ متخذًا من أطروحات المهندس علي منصور الكيالي أنموذجاً تطبيقيًا، باعتباره أشهر من تلبس

بالتلاعب بعقول العوام من خلال تزييفه للعلوم الطبيعية، وعبثه بدلالات النصوص الشرعية، بمنهجية التركيب الشائه بين العلم والدين، وهو ما ساهم في نشر الخرافات في المجتمعات المسلمة عبر شعارات تجميلية تسويقية محببة للنفوس، وكلّ ذلك تحت عنوان: «ثبت علميًا»، و«أعلنت وكالة ناسا!»...، مع كثافة إطلالاته الفضائية. وهو مشروع يصحّ أن يقال إنه امتداد للباطنية القدماء في غرائب تفسيراتهم، كما نبَّه على ذلك أبو حامد الغزالي في كتبه فضائح الباطنية والإحياء والمنقذ من الضلال.

ولا بدّ هنا من بيان أنّنا لا ننكر وجود مساحات للتقاطع بين الوحي والعلم الطبيعي، وفيها يحصل الائتلاف تارة، وفي أخرى يتألّق الوحي فيسبق عصر الكشف العلمي، وفي ثالثة يتأخّر العلم عن تصويب أخطائه، فيما يخلو منها الوحي الحق...، وإنكارنا بذلك على الكيالي ليس في الإفادة من كشوف العلم لتعميق وعينا بكنوز نصوص الوحي، وإنّما في تزييف العلم والوحي لإبهار السامعين.

وقد بدأتُ في قراءة كتابنا هذا لعالم الفيزياء الكونية أ.د. محمد باسل الطائي، وأنا أحدث نفسي: يا ترى فيم أخطأ الكيالي؟ غير أنّي عند الوصول إلى آخر صفحات الكتاب انقلب سؤالي إلى: عجبًا، ما الشيء الذي لم يخطئ فيه الكيالي؟! فإنّ الرجل عريض الدعوى، كثير الزلل.

ولهذا الكتاب مذاق خاص؛ إذ عالج فيه مؤلفه القضايا التي طرحها الكيالي -الذي يزعم التخصص في علوم الفيزياء- في ضوء المعارف الفيزيائية، كما يعرفها أهلها، لا كما يدّعيها الدخلاء؛ فكان حديثه دقيقًا في عبارته، متوازنًا في طرحه، بريئًا من لغة الإثارة المجانية، والتهويل الصفيق.

وإنّ هدم الدكتور الطائي لمنطلقات الكيالي (العلمية!) ليوفِّر على الجميع جهد البحث عن صوابية ما وراء ذلك من تفسيراته لآيات كتاب الله، واجتهاداته وخيالاته الدينية الشاطحة.

ولا ينبغي اختزال هذا الإصدار الجديد لمركز (رواسخ) في أنّه رد علمي

تصحيحي لأغاليط الكيالي العلمية وأوهامه، إذ الكتاب يزيد على ذلك بأنّه سياحة علمية ماتعة يتعرف فيها القارئ على آخر النظريات العلمية في الكون الواسع من كواكب ونجوم وأفلاك ومجرات إلى عوالم الذرة وما دونها، والقوانين التي تخص العالَمَيْن الكبروي والصغروي.

وختاماً فإن أطروحات الكيالي التي تزعم تقديم قراءة علمية لبعض نصوص الوحي انتصارًا للوحي نفسه، قد فتكت بعقول الناس تشكيكاً وإرباكاً، حتّى إن الملاحدة واللادينيين والمنصّرين العرب قد اتّخذوا الإسلام -بسببها- هزوًا-؛ فهي تقدّم الداعية إلى الإسلام في شرّ صورة؛ إذ يتّخذ التدليس والبتر وسيلته للدعوة إلى الإسلام، والإبانة عن ربّانيّته...، ولذلك كان كشف هذا الانحراف واجبًا، وكان قيام رجل من أهل التخصص في العلوم الكونيّة -كالدكتورمحمد باسل الطائي- إلى بيان الحق في هذا المقام فريضة.

بيد أنك ربما تعجب عندما تقرأ في ثنايا نقد الدكتور الطائي لأغاليط الكيالي العلمية الهائلة مشفوعًا بأوصاف مثل: «بهلوان، جاهل، تزييف، فجيعة، تناقض، سطحية، تحريف، دجل، شعوذة، عبث». لكن سرعان ما يزول عجبك عندما يُبَصِّرك الدكتور الطائي بالتدمير العلمي والديني الذي عاث به الكيالي سنين عديدة في عقول من وثقوا به من ضحاياه الأبرياء! وإذا كان عالم الجزيرة الأديب المؤرخ حمد الجاسر كتب في مجلة العرب في مايو عام 1981م سلسلة مقالات تحت عنوان «الدكاترة والعبث بالتراث» كاشفا جرمهم في رصيد الأمة الأدبي، فإن أ.د. محمد باسل الطائي يكمل المسيرة، ويكشف العابث الأكبر بموروث الإنسانية العلمي.

محمد العوضي

مقدمة

إن العمل في التفسير العلمي أو البيان العلمي للقرآن الكريم مسؤولية كبيرة، ينبغي أن يتصدى لها الباحثون المختصون. ذلك لأن وقوع أخطاء منهجية في هذا النشاط سيلقى وزره على القرآن وعلى الإسلام، وسيتهم المسلمون بتزوير الحقائق، وإيراد ادعاءات باطلة، بل سيؤدي ذلك بالناس إلى الاستخفاف بمثل هذا النشاط الجليل، ويحوله إلى أمثلة للتندر والسخرية.

لذلك فمن الضروري أن تتأكد الهيئات والمؤسسات الإعلامية من أهلية الباحث المتحدث في الأمور الدينية أو في تفسير القرآن بالأخص. من الواجب عليهم أن يتحروا عن تأهّل من يتحدث في ذلك، والتأكد من أنه باحث متخصص في المسائل العلمية التي يتحدث بها إلى الجمهور؛ لأنه بغير ذلك فلربما أشاع كلاماً فيه أخطاء جسيمة يُحمِّلها الناس للقرآن وللإسلام.

ومما يلاحظ أن مؤسسات إعلامية كبيرة قامت خلال السنوات الماضية بتقديم شخصيات تدعي العلم والمعرفة في تفسيرٍ وفهم جديد للقرآن وما هي بذلك، وفتحت لها الفضائيات أبوابها في محاضرات ولقاءات وبرامج واسعة لنجد أن هذه الشخصيات تقدم علماً مزيفاً pseudoscience؛ إذ تستخدم مفردات علمية معروفة في غير مقاصدها العلمية، أعني تزيف المقاصد العلمية لتدعي من خلالها تفسيراً إعجازياً للقرآن يحرّف مقاصده أيضاً ويضعها في إطار لا يناسبها.

إن هذا العبث يؤسس لنفسه من خلال ادعاءات كاذبة على العلم وعلى اللغة، لكنه للأسف يأخذ بفهم قطاع واسع من الناس إلى قناعات مغلوطة وأفهام منحرفة، مستغلاً حقيقة ضعف الثقافة العلمية للناس، وضعف إحاطتهم باللغة، فضلاً عن ضعف استذكارهم للقرآن، فلا يكادون يذكرون سياق الآيات التي تتلى عليهم، فتضيع المعاني والمقاصد، إذ يجعل هؤلاء المحرفون القرآن عضين.

لقد حذّر النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم من أمثال هؤلاء الدجاجلة، فما يذهب

إليه هؤلاء ليس اجتهاداً بل هو تزييف للعلم وللعربية، وتحريف لمقاصد القرآن. ولعلنا ندرك غاياتهم حين نعلم أن بعض الكتاب الغربيين قد امتدح أحدهم ووصفه بأنه (مارتن لوثر الإسلام)! ودعا إلى دعمه ليقوم بثورة لوثرية في الإسلام! وذهب آخر من المتعالمين من أبناء جلدتنا ليدعم هذه الدعوة بمقال كتبه في إحدى المجلات الغربية المرموقة يدعو الغرب أيضا إلى دعمه وتأييد مسلكه.

إنّ علينا أن نوضح الحق للناس، ونسدد فهمهم، فننقل إليهم العلم الصحيح والفهم الصحيح للدين. وهنالك فرق كبير بين ما هو اجتهاد في الفهم، وتعبير عن الوجوه الممكنة للعبارات القرآنية، وما هو حكم بالأهواء. وللعمل في التفسير والاجتهاد أصول وقواعد ينبغي اعتمادها. ومما ينبغي الانتباه إليه مايلي:

1. ضرورة إدراك أن العلم يتكامل كل يوم، وأن هنالك مشاهدات وهي حقائق، وهنالك نظريات وهي مجموعة فرضيات وقوانين يتم اشتقاقها بأساليب رياضية عادة. والقوانين العلمية هي التي تمكننا من إجراء الحسابات، وتقديم نتائج، وبذلك نتوثق منها.
2. لكننا يجب أن ندرك أيضاً أن عامة النظريات تتغير عصراً بعد عصر، وهنا ينبغي الفصل بين ما هو حقيقة واقعة، وما هو تفسير نظري.
3. ضرورة إدراك أن العلوم المتقدمة كنظرية النسبية، وميكانيك الكم (الكوانتم)، تتطلب معرفة تخصصية على جانب كبير من العمق، لكي نتصرف بها على الوجه الذي نتمكن به من تقديم تفسيرات لأمور غير واقعة تحت الحس مباشرة، أو تفاسير للقرآن أو الحديث.
4. ضرورة الانتباه إلى أن القرآن الكريم احتوى على آيات محكمات هن أم الكتاب مثل آيات الحدود، وآيات أخرى سماها القرآن متشابهات، ولهذا الحال موجباته الموضوعية وأسبابه المعرفية، كما سوف نبين في فصل لاحق.

في هذا الكتاب سأعرض للأخطاء الجسيمة التي وقع فيها المهندس علي منصور الكيالي في تقديمه للمعلومات الفيزيائية لتفسير بعض آيات القرآن الكريم من خلال

تزييف المعلومات الفيزيائية التي جاءت بها الفيزياء الحديثة، وسأرد في كل موضع من مواضع الزيف، مبيناً المعلومة الصحيحة لكل حالة، ولن أدخل في مناقشة مستفيضة لآرائه في التفسير.

وليكن هذا الكتاب فرصة ليس لفضح الزيف الذي يبثه الكيالي وغيره، وحسب، بل لمعرفة العلم الحق، وللتعرف على أسلوب التفكير الصحيح، وفهم العلاقة السوية بين القرآن والعلم والإنسان. لذلك فقد عمدت إلى تقديم المعلومات الصحيحة عن كل مسألة من المسائل التي تعرضتُ لها. راجياً أن يساهم هذا العمل في بسط الحقيقة وتنوير الناس.

قمت في الفصل الثاني بتقديم رؤيتي للبيان العلمي للقرآن والأسلوب الصحيح للتعامل مع الآيات الكونية التي وردت فيه، فأغلب هذه الآيات مما يقع في المتشابه. كما بينت الأصول التي أرى ضرورة اعتمادها في تعاملنا مع العلاقة بين الإسلام والعلم، آخذاً بالاعتبار ثبات حقائق القرآن، وتغير مفاهيم العلم. وقد وجدت أن التوفيق في ذلك يكمن في حقيقة المتشابه نفسه، إذ يعبر عن تحمل النص أوجهاً مختلفة وظفها منزِّل الكتاب العظيم توظيفاً جليلاً لاحتواء الحقيقة مع تغير الأفهام عبر الأزمان، وهذا جانب عظيم من البنية اللغوية للقرآن الكريم.

إن المسؤولية الاجتماعية والمسؤولية العقائدية تدعونا إلى كشف زيف المزيفين، وضلال المُضلين، إنصافاً وعدلاً مع الناس ومع العقيدة. وبهذه المناسبة أدعو الهيئات الإعلامية المسؤولة إلى التوقف عن نشر الضلال، وإفساد المعارف العلمية عند الناس، من خلال أدعياء العلم، فالله تعالى يقول: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات: 24].

والله ولي التوفيق

محمد باسل الطائي

يناير - كانون الثاني 2019م

الفصل الأول
تزييف العلم

متشابه القرآن

إن أحد أهم الأسباب التي تدعو إلى العمل في البيان العلمي للقرآن كونه يحوي إلى جانب الآيات المحكمة، آيات أخر سماها القرآن (متشابهات)، وهي الآيات التي تحمل وجوهاً متعددة. يقول الله تعالى في سورة آل عمران:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾[1].

قد نتساءل لماذا جاءت آيات القرآن بعضها محكم واضح جلي، وبعضها الآخر حمّال أوجه؟ ومن أوجه الجواب قولنا: إن القرآن كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولذلك أودع الله سبحانه في آياته وجوهًا من الدلالة بعضها أعمق من بعض، فيتفاوت الناس في إدراك المعاني المرادة المحتملة، فمنهم من يفهم المعنى الظاهر الواضح، ولا يخطر بباله أن تحت الظاهر وجهًا أعمق وأدق وأحسن، لكن استنباط هذا المعنى يحتاج إلى تعمقٍ في علوم اللغة، أو اتساعٍ في المعارف التجريبية، ولا تنافي بين هذه المعاني، لكن معارف الناس في عصر النزول، وفي أي عصر لاحق، لن تكون كلّها بأي حال من الأحوال كاملة وقطعية، ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون الآيات -في المسائل الكونية حمَّالة لوجوه...- غير صادمة لثقافة أهل عصر، وإنما يترقى كل جيل في فهمه لها مع تطور الوعي البشري.

---

(1) آل عمران:7.

واللغة العربية هي أغنى اللغات والألسن، وأكثرها ثراء، لذلك كانت مناسبة لتحتوي دقة الكلمة والعبارة، وليكون التنزيل صالحاً في التعبير على مر الدهور والأزمان. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: 44].

أما أن يأتي اليوم أناس لا يفقهون من العلم القرآني شيئاً، ولا من العربية ما ينبغي لهم أن يفقهوه، فيقوموا بالترويج لتفاسير يعتبرونها تجديداً لفهم القرآن واجتهاداً، فهذا أمر مرفوض، وعلى الهيئات العلمية المؤهلة مواجهة هذه التيارات، وفضح فساد ما تذهب إليه، وتعرية أهدافها في تضليل الناس.

وهنالك من خرج علينا بتفاسير غريبة لكثير من آيات القرآن التي تتعلق بالمسائل الغيبية، وأحياناً بالمسائل الحكمية، يدعي فيها أنه إنما يعتمد دقة التعبير، نافياً أن يكون في القرآن مترادفات، وهذا جهل، بل هو تشويه للقرآن، وتحريف للكلام عن مقاصده.

الكيالي كما يُعرّف نفسه

يقول علي منصور الكيالي عن نفسه إنه الحفيد الثامن والأربعين للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم! وهذا الادعاء يحتاج إلى إثبات، خاصة وأن الحفيد الثامن والأربعين في سلسلة النسب الشريف ربما لم يولد بعد. والسؤال الأهم هنا هو: ما غايته أصلاً من ذكر هذا الأمر، غير أن يستهدف منه استمالة السامعين إلى أقواله عاطفياً من أجل تصديق ما يفتريه عليهم، تحت غطاء أنه من أهل البيت؟

أما من جانب تأهيله العلمي فنقرأ أنه مهندس معماري، ويدعي أنه عالم فيزيائي درس علوم الدين، وحصل على الدكتوراه في (البحوث الإسلامية)، هذا ما قرأناه في سيرته الذاتية على موقعه، لكنني علمت أنه رفع جملة تحصيل الدكتوراه منها لاحقاً!

وربما علم شيئًا من مفردات الفيزياء الحديثة من خلال قراءته للكتب المترجمة المكتوبة للعامة. وبالعموم فإن الكيالي لم يحصل على تأهيل علمي عالي يؤهله للحديث في الأمور العلمية التي يتكلم بها، وكل ما يصنعه هو استخدام مفردات علمية في معاني وتفسيرات خاطئة، من أجل الترويج لتخيلاته المغلوطة عن معاني القرآن.

لن أتتبع جميع أقوال الكيالي هنا، بل سأسعى إلى تجميع المعلومات التي ساقها تحت عناوين عريضة لمسائل ذكرها في أحاديثه ومحاضراته. ومن الجدير بالذكر أن الرجل يختار للمواضيع التي يطرحها عناوين ذات شنة ورنة، ففي إحدى الحلقات المتلفزة تحت عنوان (النظرية الخيطية في الكون) نجده يبحث المواضيع التالية:

- ما هو عالم الظل؟
- أنواع الأوتار.
- الأبعاد السبعة.
- علاقة آية الكرسي بالنظرية الخيطية.

- نظرية التوازن الفائق.
- القوى الأربعة في الكون.
- نظرية كل شيء.

وبهذه العناوين يتصوره المستمع على أنه بالفعل عالم فيزيائي متمكن، يتحدث عن علم متقدم وتخصصي، والحقيقة هي غير ذلك.

نشأة وتطور ومصير الكون

أبدأ ببعض التفاسير والتوصيفات التي يدعي علي منصور الكيالي أنه يقدمها مرتكزاً على ما يدعي أنه (ثبت علمياً)، وهي عبارة يقولها مراراً وتكراراً في أحاديثه. فيقدم توصيفاً ليوم القيامة بطريقة فيزيائية، هذا الوصف ملئ بالأخطاء العلمية.

يقول: وبدأ الكون منذ 16 مليار سنة بالتوسع على شكل (البوق العملاق)، وفي محاضرة أخرى يقول (على شكل مخروط) حاملاً بيده كرتونة على شكل مخروطين يلتقيان برأسيهما، مدعياً أن وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) أعلنت ذلك.

والصحيح: أن هذا التوصيف خاطئ علمياً، فالكون في المكان كروي ثلاثي الأبعاد، وفي الزمكان (أي الزمان زائد المكان) كروي رباعي الأبعاد، ووكالة ناسا لم تعلن ذلك، ولا هي الجهة المخولة بذلك.

وصحيح أن أحداً لم يخرج خارج الكون لكي يرى شكله، لكن رصد الإشعاعات الآتية إلينا من جوانب الكون كافة تشير إلى أن توزيع المادة في الكون متجانس، وأن هذه الإشعاعات تنطلق بنسق واحد من كافة أجزاء الكون، مما يدل على أنه متناظر كروياً أي كرة. هذا ما هو عليه الأمر في التوصيف العلمي الحالي.

ولكن من أين جاءت فكرة الكيالي هذا أن الكون شكله مخروطي؟

يبدو أنه نظر إلى ما يسمى المخطط الزمكاني للكون (مخطط منكوفسكي) والذي نرسمه نحن الفيزيائيون المتخصصون على شكل مخروط (ونسميه المخروط الضوئي) وكما هو موضح في الشكل (1) فظن أن شكل الكون مخروطي الشكل هكذا.

وحقيقة الأمر: أن المخطط الزمكاني الذي على شكل مخروطين يلتقيان برأسيهما له بعد زماني في الاتجاه العمودي، وبعد مكاني في الاتجاه الأفقي، ومن هنا جاءت كلمة زمكاني التي هي دمج لكلمتي زماني ومكاني معاً. والمخروطان هما: مخروط سفلي يمثل أحداث الماضي، ومخروط علوي يمثل أحداث المستقبل، التي لم تأت

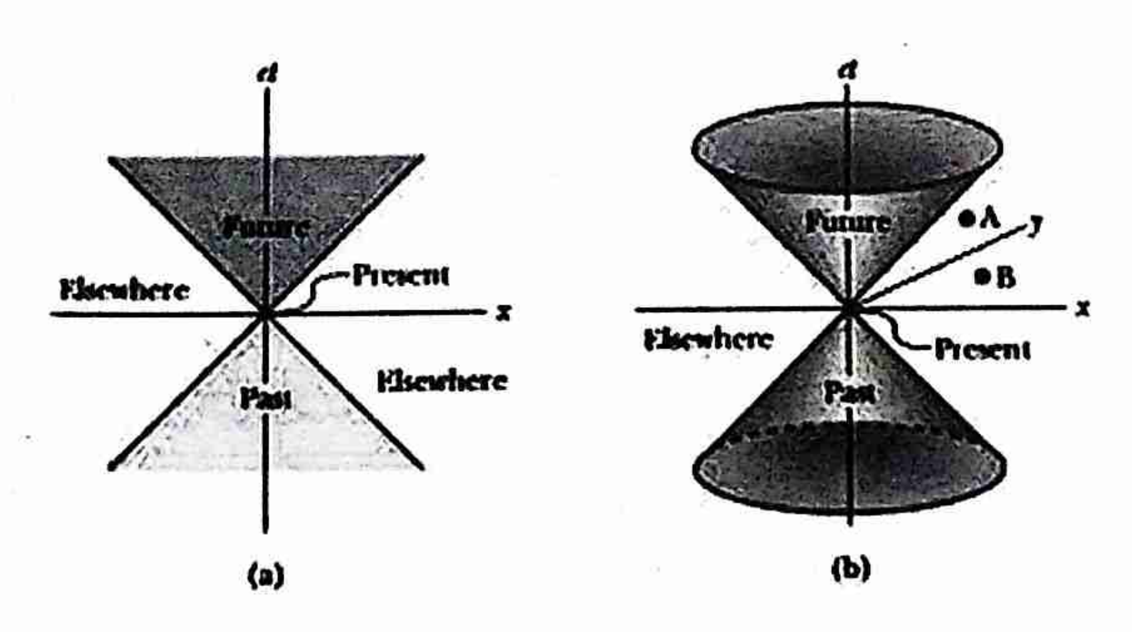
بعد، وكلا المخروطين يلتقيان في نقطة هي الحاضر. وما هذا الشكل (1) المخروطي المبين في المخطط أدناه إلا تمثيل تخطيطي وليس الواقع فعلاً.

المحور العمودي هو محور الزمان، لذلك كلما توجهنا إلى الأعلى فإننا نسير بالزمان إلى المستقبل وهكذا.

يقول الكيالي: إن داخل المخروط فارغ ليس فيه نجوم ولا مجرات، بل الكون هو السطح العلوي منه فقط.

وهكذا يتوهم حالة الكون ملتقطاً عبارة أن (الكون سطح) التي نرددها نحن الكوزمولوجيين، ويظن أنها سطح قاعدة المخروط العلوي، وهذا يعكس الخطأ الفادح في فهمه للتوصيف الزمكاني للكون.

والصحيح: أن المخروط السفلي موجود في أي وقت يصف حالة الكون في الماضي، رأسه يمثل نقطة الحاضر، والمخروط العلوي يمثل المستقبل الذي لم يأت بعد، وأن ما هو داخل المخروط السفلي مليء بالمجرات، ولكنها هي الأقدم عمراً كلما نزلنا إلى الأسفل. لكن الكيالي لا يعرف هذه التفاصيل على ما يبدو.



الشكل (1) المخروط الضوئي الذي يرسم الزمكان تخطيطياً

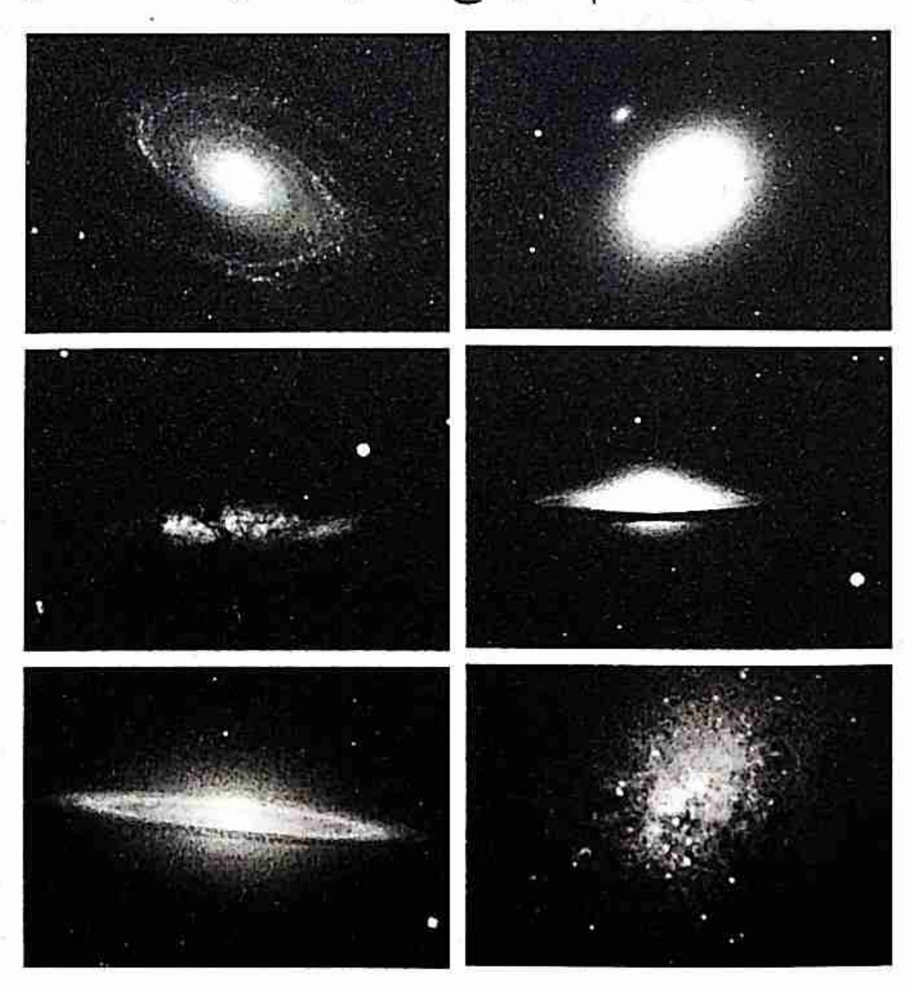
وفي كلا الرسمين يمثل المحور العمودي الزمان، بينما تمثل المحاور الأفقية

المكان، حيث يوضح الرسم في (a) المكان في بعد واحد، بينما يوضح الرسم في (b) المكان في بعدين.

كيف يتداخل الزمان مع المكان

عندما ننظر في السماء بكافة الاتجاهات، فإننا نرى النجوم، وعندما ندقق النظر باستخدام التلسكوبات نرى أن هنالك لطخات سحابية ضبابية هي المجرات، ويمكن أن نرى بالعين المجردة واحدة منها فقط هي مجرة أندروميدا.

والمجرات هي تجمعات نجمية هائلة، تحوي كل منها ما بين 100 ألف مليون إلى 400 ألف مليون نجم. والمجرات على أنواع، منها: الحلزونية، ومنها الكروية، ومنها البيضوية، ومنها ما هو غير منتظم، ويوضح الشكل (2) أنواعاً مختلفة من المجرات.



الشكل (2) أنواع مختلفة من المجرات

وكلما نظرنا أبعد، رأينا المجرات الأقدم، حتى إذا ما وصلنا إلى أبعاد كبيرة جداً في أعماق الكون رأينا المجرات في أحوالها البدائية قيد التكوين. وهكذا يكون البعد في المكان هو بعد في الزمان أيضاً. لذلك فعندما ننظر إلى نجم أومجرة، فإننا نراها في مخروط الماضي أي المخروط الأسفل في الشكل (1) دائماً. أما كما هي في الحاضر فلا نراها؛ لأن الإشارة الوحيدة التي تربطنا بها هي أشعة الضوء الذي يسير بسرعة محدودة قدرها 300 ألف كيلومتر في الثانية.

وعندما ننظر إلى أي جرم (نجم أو مجرة) في السماء، فإننا نراه على حاله كما كان عندما انطلق شعاع الضوء منه، فإذا كان بعده عنا عشر سنوات ضوئية، فإن حالة النجم التي نراها هي كما كان عليه قبل عشر سنوات، وحين ننظر إلى مجرة تبعد عنا 10 آلاف مليون سنة، فإن ما نراه هو حالها قبل عشرة آلاف مليون سنة. ولهذا السبب فنحن لا نعلم عن مواقع النجوم بالدقة الكافية لأنها متحركة، لذلك قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[1].

فمواقع النجوم والمجرات كما هي في الحاضر غير معروفة على وجه الدقة لنا، بل إن ما نراه منها في موقع ليس هو في ذلك الموقع بالضرورة، ولا يعلمها إلا العليم الخبير. من هنا تكون عظمة القسم بمواقع النجوم.

الطوبولوجيا

وفي نفس السياق يحكي الكيالي عن الطوبولوجيا Topology، وينسبها إلى علم الجبر، وهي في الحقيقة من علم الهندسة، وليس علم الجبر[2].

يقول الكيالي: (الطوبولوجيا هي دراسة الجانب الآخر من الشكل، أو دعونا نشبه

(1) الواقعة: 75 - 76.

(2) في المعاجم نقرأ أن الطوبولوجيا هي: دراسة الخصائص الهندسية والعلاقات المكانية غير المتأثرة بالتغير المستمر لشكل أو حجم الصورة.
The study of geometrical properties and spatial relations unaffected by the continuous change of shape or size of figures.

الموضوع بصورة إنسان في المرآة)، وهذا كلام أقل ما يقال فيه إنه غير علمي؛ لأنه غير دقيق، ولا يعبر عن الوصف الصحيح. لكن يبدو أن الكيالي أحب هذه الكلمة، المفزعة فحشرها في كلامه من أجل الفخامة.

وبموجب هذا الفهم المغلوط يقول الكيالي: يجب أن يكون هنالك كون آخر مضاد لكوننا. لماذا؟ يقول: لأن الله تعالى قال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، وهنا يقوم الكيالي بطي المخروط الضوئي الذي بيده، والذي جعله خطاً مخروطاً مكانياً بجزئيه، كما تطوى صحائف الكتب التي بين أيدينا.

والصحيح: أن هذا التصوير خاطئ علمياً بالتأكيد، فهو فعلياً يطوى مخروط الزمكان الماضي على مخروط المستقبل الذي لم يحضر بعد، وليس المكان الممثل للكون.

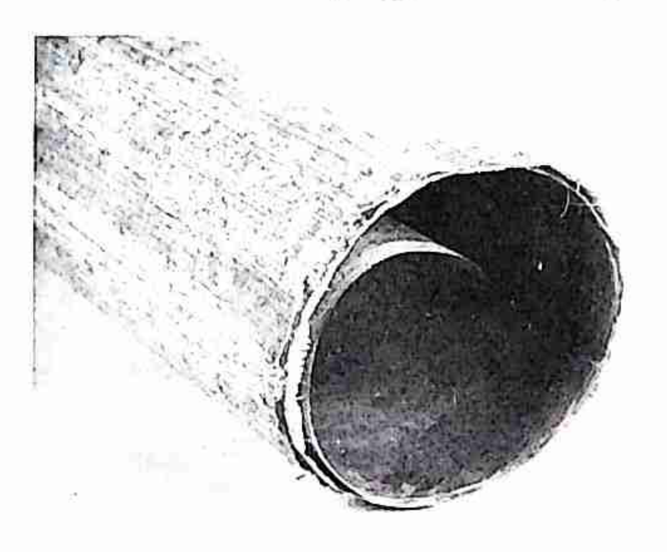
ويستشهد الكيالي بقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: (وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض)[1]، ثم يجعل رأس المخروط بمثابة جهنم كما يقول! وهكذا يجد أن هذه «الطبولوجيا» تحل له مشكلات كثيرة في تفسير الآيات الكونية في القرآن على حد زعمه.

الحقيقة: هذا الكلام كله غير صحيح، بل هو فاجعة وعبث لا مثيل له، فإن عملية طي الكون تعنى بالضرورة جمع أجزائه المكانية بعضها إلى البعض الآخر في عملية انكماش عظمى.

وحقيقة الأمر في مسألة طي السماء (أي الكون كله) كطي السجل للكتب الواردة في الآية (104) من سورة الأنبياء لا يكون بضم صفحة إلى أخرى كما نطوي دفاترنا العادية الآن، بل بطريقة لف ورقة على نفسها، فالورقة الفارغة المسطحة (الصحيفة) هي السجل، وعندما نريد طيها فإننا نلفها، لأن الكون مسطح مكانياً أي منبسط حسبما ثبت بالأرصاد الفلكية، فهو مثل الورقة أو الصحيفة المنبسطة، فعندما نكتب عليها

(1) انظر نص الحديث في صحيحي البخاري ومسلم.

كلاماً تصبح كتاباً، وعندما نطويها باللف على بعضها نُتمُّها ونرسلها. هذا هو التصوير القرآني لطي السجل للكتب، وكما موضح في الشكل (3).



الشكل (3) طي الكون كطي السجل للكتب

حقيقة الكون المضاد: ما يقول عنه الكيالي إنه كون مضاد، فهو في الحقيقة تصوير زمكاني للكون في الماضي، وليس له علاقة بالكون المضاد، أما أن يكون ينوي الكيالي اختراع علم جديد، فالمجال مفتوح أمامه، ولن يمنعه أحد من ذلك، لكن هذا أمر آخر. ولكن ينبغي أن يكون مؤهلاً لتقديم هذا العلم الجديد، وأن يقوم بطرحه على أسس عقلية ومنطقية ورياضية مقبولة.

الكون المضاد يمكن أن يكون موجوداً، لكن ليس على الصورة التي قدمها الكيالي، وسبب وجوده ليس لأن الله سيطوي السماء كطي السجل للكتب، بل بسبب قانون حفظ الأعداد الكمية بحفظ المادة والمادة المضادة.

فإذا كان كوننا مؤلفاً في أغلبه من مادة matter، فلابد بحسب نظرية الجسيمات الأولية من وجود كمية مماثلة من مادة مضادة antimatter، أي بعدد الالكترونات الموجودة في كوننا، ينبغي أن يكون هنالك عدد مساوي من البوزيترونات (ضديد

الإلكترون موجب الشحنة)، وبعدد البروتونات الموجودة، يجب أن يكون هنالك العدد نفسه من البروتونات المضادة... وهكذا. بالتالي يمكن أن يكون هنالك كون مضاد كامل يتألف من ضديدات الجسيمات التي نجدها في كوننا، لكن هذا أمر افتراضي وحسب. بل يعتقد كثير من العلماء أن نوعاً من الآلية التكوينية قد عملت عملها في بداية خلق الكون، أي في الآنات الأولى للخلق، فمنعت توليد جسيمات مضادة، مما جعل الكون غير متناظر في هذا الجانب non-symmetric، فظهر كوننا يحتوي على المادة، واختفت المادة المضادة.

وفي كل الأحوال تبقى مسألة عدم تناظر المادة والمادة المضادة في الكون غير محلولة، وهي قيد البحث، وحتى الآن لا يوجد جواب علمي موثوق به لهذه المسألة، وكل ما لدينا هو تخمينات وحسب.

لذلك لا ينبغي العبث بالمعلومات العلمية على هذا النحو الذي يقدمه الكيالي، لأن في ذلك تزييفاً للعلم، كما لا ينبغي أخذ هذه المعلومات المزيفة وتطبيقها في تفسير القرآن؛ لأن في ذلك تحريفاً متعمداً لمقاصد القرآن. وأقول (متعمد) لأن المتحدِّث يعرف أن هنالك علماً صحيحاً قام بتزييفه لتغطية شعوذته.

وصف نهاية الأرض

ثم بعد ذلك يعود الكيالي في محاضرته إلى الحديث عن الكرة الأرضية، وأمر الساعة، لتفسير قيام الساعة، وكأن الكون سيتم طيه قبل نهاية الأرض...، كلام غير مفهوم ومتناقض لا معنى له.

يقول الكيالي: (تأتي قذيفة نحو الكرة الأرضية بسرعة 300 ألف كيلومتر أو أكثر)، ويرى أن سورة النازعات تقرر ذلك، (فيحصل حدثان هائلان، تضرب القذيفة الأرض فتعكس دورانها فتشرق الشمس من مغربها)! ويقول: (أثناء مجيء القذيفة نحونا سوف تفجر الشمس وراءها)، دون أن يعطي سبباً واضحاً لذلك. ثم يخلط هذا

الكلام بما يقوله علم الفلك عن مصير الشمس، والذي كنت قد كتبته في كتابي (خلق الكون بين العلم والإيمان) الصادر عام 1998 عن دار النفائس ببيروت، وفصلت الأمر أكثر في كتابي (صيرورة الكون بين العلم والإيمان) الصادر عام 2009، فيشوه الكيالي بما يحكيه الصورة تشويهاً عجيباً.

ثم يخلط هذا الكلام الذي يظن الناس أنه علمي، مع الوصف القرآني لخروج الأموات من الأجداث (القبور)، دون أن يقول إن هذه الأوصاف الغيبية هي ليست فيزيائية، بل يوحي أنها فيزيائية! بل يذهب أكثر من ذلك، فيقدم وصفاً مادياً للصفوف وللملائكة التي تعاقب غير المنضبطين في الصفوف. لكنه لم يقل لنا كيف يمكن وجود الناس على هذه الصورة، وحرارة الأرض وقتها تكون 16000 درجة؟

الحقيقة: أن علم الفلك والأستروفيزياء لا يحكي عن قذيفة، بل يحكي عن تطور الشمس، وانتقالها في مراحل حياتها النهائية، بسبب استنفاذ وقودها النووي، لتتحول إلى عملاق أحمر. ولست أدري من أين أتى الكيالي بحكاية القذيفة هذه؟!

ويقول في حديث آخر له ذي صلة (مليونين ونصف مشاهدة): إن أي شيء يسير بسرعة الضوء لا تستطيع كشفه حتى الرادارات.

الصحيح: أن الأمواج الكهرومغناطيسية تسير بسرعة الضوء، ويمكن كشفها بالرادارات، أما إذا كان قصده جسماً ذا كتلة (القذيفة التي جاء بها من بنات أفكاره)، يسير بسرعة الضوء، فهذا محال أصلاً، إذ لا يمكن لأي جسم ذي كتلة أن يسير بسرعة الضوء؛ لأنه سيحتاج إلى قوة لانهائية لدفعه حتى يصل إلى سرعة الضوء حسب نظرية أينشتاين. أما إذا ما ادعى الكيالي أن ذلك سيحصل بمعجزة ربانية، فعليه إذن أن لا يخلطها بالفيزياء.

ويقول: الملائكة سيصِلُون الأرض بذات اليوم، وليس قبل شهر. أي يوم الإطاحة بالأرض، وطلوع الشمس من مغربها، علماً أن المعروف في تراثنا الديني أن الملائكة صاعدة نازلة من وإلى الأرض كل آن.

والحقيقة: أن ظهور الشمس من مغربها بموجب سيرة علم الفلك يمكن أن يحصل بعد انكماشها السريع، وارتفاع حرارة لبها، وحصول انفجار في قلب الشمس، بسبب اندماج نوى ذرات الهليوم فيه اندماجاً انفجارياً، وهذه تسمى في علم فيزياء النجوم ومضة الهليوم Helium Flash فتنتفخ الشمس كما سيأتي توضيحه.

والسؤال: هل يبقى هنالك أيام بعد أن تطلع الشمس من مغربها أيها الكيالي؟

ويقول: (بعد انتهاء الحياة على سطح الأرض، تقول وكالة ناسا - وهذه عبارة يكررها أيضاً - إن الكون سيعود منسحباً في عكس عملية البج بانج...)، ثم يأتي بالآية ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...﴾.

الصحيح: أن وكالة ناسا لا تقول هذا، بل إن نتائج الأرصاد الحالية تقول إن الكون سيستمر في التوسع المتسارع حتى يتبدد، وهذا ما كشفت عنه الأرصاد الفلكية لسرعة تباعد المجرات عام 1998، حيث تم منح جائزة نوبل في الفيزياء عام 2013 للعلماء الثلاثة الذين اكتشفوا تسارع الكون.

وهنا خالفت التوقعات السائدة علمياً ما جاء في القرآن، وهذه المشكلة أضعها أمام الكيالي لكي يجيب عنها، رغم أنني قد أجبت عليها في كتابي (صيرورة الكون) من خلال بحث علمي رصين لأحد طلبتي في الدراسات العليا[1].

(1) انظر رسالة الماجستير للطالب منير درادكة (باللغة الإنجليزية)
Munir Daradka, A Collapsing Flat Universe, M.Sc. thesis, Physics Department, Yarmouk University, 2007.

تطور الشمس بحسب علم الفلك

الكلام الصحيح الذي يقرره علم فيزياء النجوم (الأستروفيزياء Astrophysics) بشأن تطور الشمس (وأمثالها من النجوم)، ومصيرها، هو ما تم معرفته من خلال عشرات السنين من الأرصاد التي شملت عدداً كبيراً جداً من النجوم الشبيهة بالشمس، ولكي نفهم سيرة الشمس وتطورها، دعنا نتعرف أولاً على مصدر طاقة الشمس.

وقود الشمس

ما هو وقود الشمس؟ وكيف يمكنها أن تستمر في إشعاع الطاقة لآلاف الملايين من السنين؟ لو كانت الشمس مركبة أصلاً من مادة الفحم أو الخشب، فإنها برغم كتلتها الهائلة لن تستطيع إشعاع هذا القدر الذي تصدره من الحرارة والضوء أكثر من ستة آلاف سنة، لذلك لا يمكن أن يكون الفحم أو الخشب مصدراً لطاقة الشمس.

لقد ابتدأ البحث في هذه المسألة عام 1848، وكان **جوليوس ماير** أول من حاول تفسير طاقة الشمس، فافترض أن طاقتها ناتجة عن سقوط النيازك والمذنبات والأجرام الأخرى عليها، لكن السير **جيمس جينز** وجد أن هذه الطاقة غير كافية أبداً.

وفي عام 1853 وضع **كالفن وهلمهولتز** نظرية تفترض أن حجم الشمس ينكمش باستمرار، وبالتالي تحرر الطاقة الجذبية الذاتية لأجزائها. إلا أن هذا الافتراض لم يقدم أيضاً الحل المطلوب للمشكلة، نظراً لأن الحسابات تشير إلى أن عمر الشمس لن يزيد عن (20) مليون سنة في أحسن الأحوال، في الوقت الذي تقرر فيه الكشوفات الجيولوجية أن عمر الأرض هو 4.5 مليار سنة، مما يعني أن الشمس لا بد أن تكون بنفس العمر أو أقدم. ولم يتوصل العقل البشري إلى التفسير الصحيح لتوليد الطاقة في باطن الشمس (وبقية النجوم المماثلة) إلا بعد تقدم العلوم النووية، وكانت نظرية النسبية الخاصة **لألبرت آينشتاين** قد مهدت لذلك من قبل من خلال اكتشاف

علاقة الطاقة والمادة، بموجب العلاقة: الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء، حيث تبين أن كمية هائلة من الطاقة تحتويها نوى الذرات من خلال ترابط أجزائها بعضها بالبعض الآخر. هذه الطاقة مخزونة كطاقة ربط لأجزاء النواة، فإذا ما تم تفكيك الأجزاء أو تجميعها فإن هذه الطاقة لا بد أن تتحرر.

إنتاج الطاقة في باطن الشمس

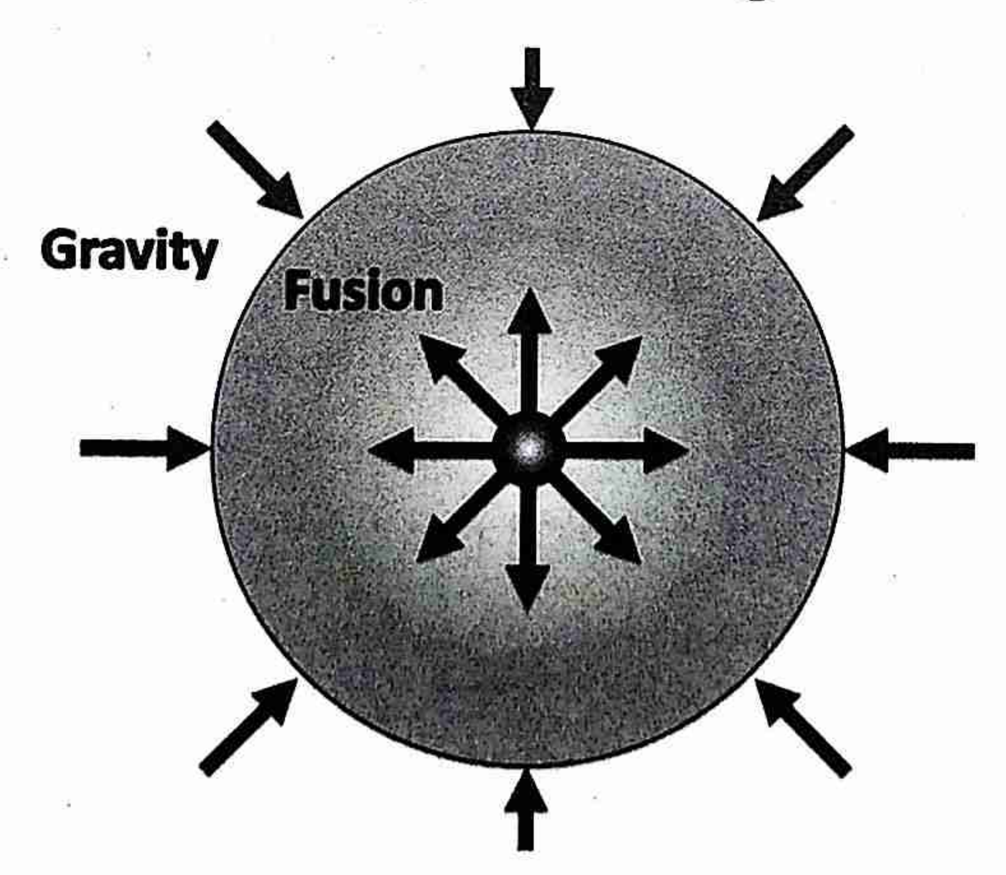
ما يحصل في الشمس بحسب التفسير الذي قدمه **هانز بيتا** وجماعته عام 1939 أن درجة الحرارة الهائلة التي تزيد على (15) مليون درجة في لبها تؤدي إلى اندماج نوى ذرات الهيدروجين الاعتيادي، لتولد نوى ذرات نظير الهيدروجين المسمى (ديوتيريوم)، ثم تندمج نواة الديويتريوم مع نواة هيدروجين أخرى، لتولد نواة غاز نظير الهليوم (3)، وهو نظير غير مستقر للهليوم، ثم تندمج نواتا هليوم 3 لكي تنتج نواة هليوم 4 (وهو غاز الهليوم المستقر)، إضافة إلى إطلاق بروتونين. وبالمحصلة يمكن القول إن العملية تتم باندماج أربع نوى هيدروجين لتنتج نواة هليوم واحدة، مع تحرير طاقة كبيرة عن هذا التحول. وهذه الطاقة هي مقدار الفرق بين مجموع كتل النوى الأربعة الداخلة، ونواة الهليوم الناتجة من التفاعل. هذا ما يحصل في الشمس (والنجوم ذات الكتل الواطئة)، أما في حالة النجوم الكبيرة، فإن عمليات أكثر تعقيداً تتم لتوليد الطاقة، وكلها تعتمد على عملية الاندماج النووي. إذن فالشمس هي بؤرة متأججة لقنابل هيدروجينية هائلة تتفجر داخلها، لتولد الحرارة والضوء اللذين ننعم بهما في حياتنا.

إن الشمس تتحصل من خلال عمليات الاندماج النووي التي وصفناها بإيجاز هنا على كمية هائلة من الطاقة ناتجة عن تحول طاقة الربط النووية، وهي ما يدخل في حساب كتلتها، فتفقد كل ثانية بسبب إشعاع الطاقة الهائلة من سطحها ما يعادل 6 مليون طن من الكتلة في الثانية الواحدة. وهذا الرقم على الرغم من أنه يبدو كبيراً بل

مهولاً، إلا أنه لا يمثل إلا جزء من 10 آلاف مليار جزء من كتلة الشمس في السنة، أي أن الشمس بعد عمرها المديد كله تفقد حوالي 6 بالألف من كتلتها لا أكثر.

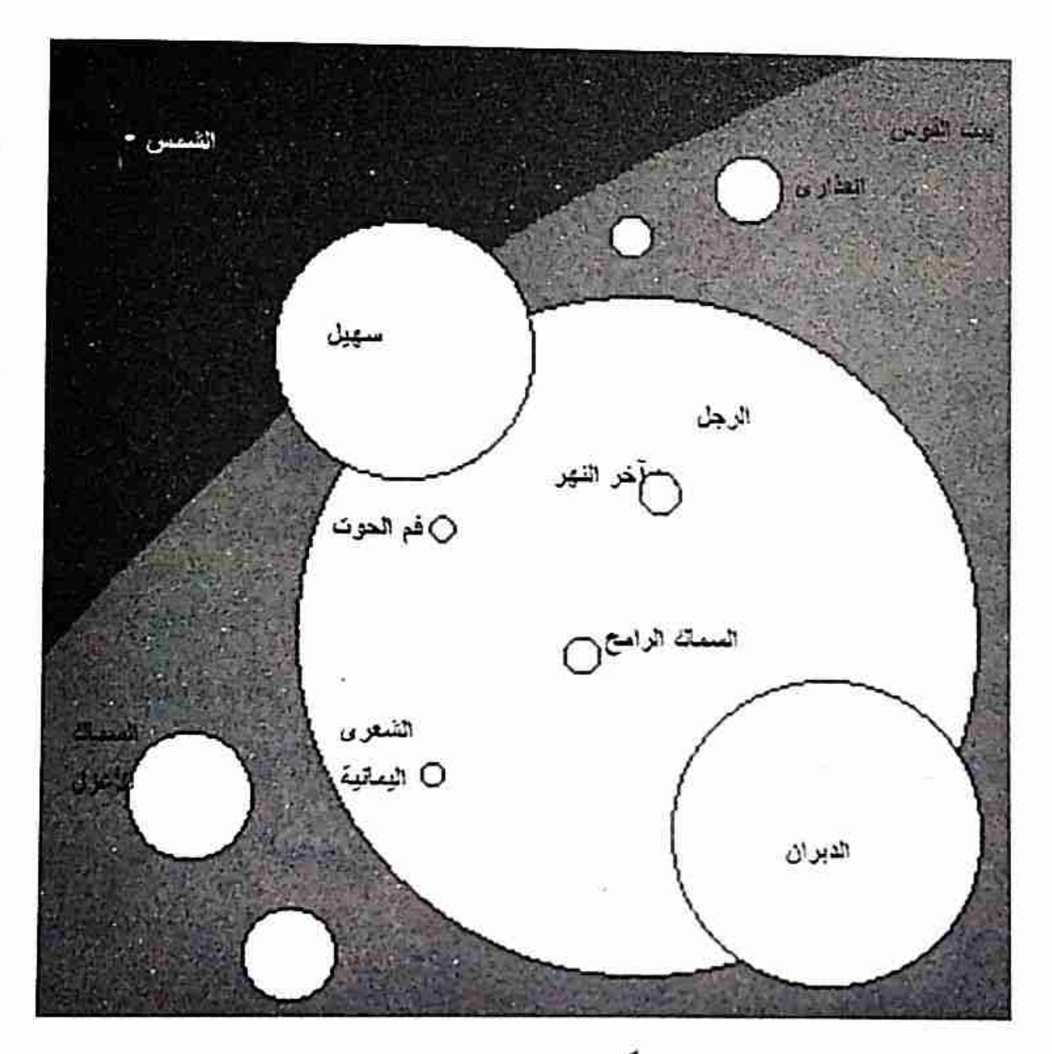
تكوير الشمس

إن الشمس في حالة توازن هيدروستاتيكي ينتج عن تدافع قوى الجذب الكتلي التي تتبادلها أجزاؤها، والتي تسعى إلى انكماشها، وقوى الضغط الناتج عن الانفجارات النووية، والتي تسعى إلى تمزيقها، ويحفظ هذا التوازن آلية عجيبة من تناسق قوانين الانتفاح والانكماش، محققاً ذلك التوازن العجيب، فإذا زاد معدل الاندماجات النووية، انتفخت الشمس، فإذا انتفخت بردت فتقلصت، وإن تقلصت الشمس ازداد ضغطها وارتفعت درجة حرارة باطنها، مما يؤدي إلى زيادة وتيرة الاندماجات النووية حتى، فيزداد الضغط داخلها فتنتفخ، وهكذا فإن الشمس في حال تذبذب مستمر لكنه متوازن.



الشكل (4) تدافع القوى النووية والجاذبية في تحقيق توازن الشمس

إن عملية اندماج نوى ذرات الهيدروجين لإنتاج الهليوم في باطن الشمس يمكن أن تستمر لبضعة آلاف الملايين من السنين، وهي بحسب التقدير الحالي يمكن أن تستمر لخمسة آلاف مليون سنة أخرى، ما لم يقدر الله سبحانه وتعالى أمراً آخر. إلا أن نفاد الهيدروجين من قلب الشمس يؤدي إلى ضعف وتوهن معدل حصول الاندماجات النووية، مما يؤدي إلى هبوط الضغط داخل الشمس، وهذا بالتالي يؤدي إلى تغلب التجاذب الكتلي بين أجزائها بعضها إلى البعض الآخر في عملية أسميها «التكوير»، وتسمى هذه العملية بالإنكليزية: Gravitational Collapse. فتنكمش الشمس ويقل حجمها، وبالتالي يزداد الضغط داخلها، وترتفع درجة حرارتها كثيراً، وطالما كان الضغط الكتلي الناجم عن قوة الجاذبية بين أجزاء الشمس أكبر من ضغطها الداخلي، فإن الشمس تستمر في الانكماش حتى يبلغ الضغط ودرجة الحرارة قدراً كبيراً يؤدي إلى اندماج نوى ذرات الهليوم هذه المرة، وطاقة هذا الاندماج النووي هو أضعاف كثيرة من طاقة اندماج الهيدروجين، مما يوفر ضغطاً نووياً كبيراً داخل الشمس، يقاوم الضغط الكتلي، فتنتفخ الشمس ثانية، وتتسع بسرعة كبيرة، وبذلك تنخفض درجة حرارتها، لكنها حين تنتفخ تصبح عملاقاً هائلاً يبتلع كوكبي عطارد والزهرة، وربما وصلت إلى قرب مدار الأرض حسب تقديرات الفلكيين. أي أن قطر الشمس سيبلغ نحواً من ثلاثمائة مليون كيلومتر! لذلك تسمى الشمس في هذه المرحلة عملاقاً أحمر Red Giant. هنا تظهر السماء وكأنها قد انشقت بسبب التمدد الهائل للشمس، فيمتليء الأفق كله بالشمس التي ستكون وردية اللون، عندئذ بسبب انخفاض درجة حرارة سطحها إلى حوالي 3000 درجة. في هذه المرحلة التي تصبح فيها الشمس عملاقاً أحمر، يصبح قطرها حوالي 300 مليون كيلومتر كما ذكرنا، وتبتلع كوكبي عطارد والزهرة، وربما القمر.



الشكل (5) حجم الشمس حالياً مقارنة ببعض العمالقة الحمر التي تم رصدها

ثم تحصل انكماشات وانتفاخات عديدة لكرة الشمس في مرحلة من اللااستقرار، وأخيراً ينتفخ الجزء الخارجي من جسم الشمس انتفاخاً هائلاً فيما يتقلص اللب، فتنسحق المادة داخلها وتتداخل الجزئيات، وتتقارب الذرات تقارباً شديداً حتى تكاد تتداخل، إلا أن قوة التنافر الكهربائي بين الأغلفة الإلكترونية للذرات تقاوم تداخلها عندما تصبح المسافة بينها قليلة. وعندما تتعادل قوة التنافر الكهربائي مع قوة الجذب التي تعمل على تكوير (انكماش) الشمس، يحصل التوازن النهائي، وتكون الشمس قد وصلت إلى مستقرها الأخير، وتدعى عندئذ قزماً أبيض White Dwarf، إذ لا يبقى من ضوئها إلا نور خافت ضئيل.



﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾
الشكل (6) النقطة البيضاء لجرم كان شمساً

كيف عرف الفلكيون مصير الشمس هكذا؟

لو راقبنا الشمس على مدى بضع عشرات من السنين فإننا لا نرى أي تغير في حالتها؛ ذلك لأن التغيرات التي تحصل فيها تأخذ زمناً طويلاً جداً لكي تصبح ملحوظة. كيف نستطيع إذن أن نعرف مصير الشمس، ونقول إنها ستصبح عملاقاً أحمر، ثم تتكور وتؤول إلى قزم أبيض؟ وكيف نستطيع تحديد كل تلك التفاصيل التي تتعلق بتطورها وما ستؤول إليه مما تحدثنا عنه هنا؟ أليس هذا رجماً بالغيب؟

لتوضيح ذلك نقول: إننا لو أردنا دراسة تطور الإنسان منذ ولادته حتى وفاته، فإننا قد نحتاج إلى مراقب يتفرغ لبضع عشرات من السنين لمراقبة نمو وتطور إنسان واحد على الأقل منذ ولادته وحتى مماته، ولكن بدل أن نقضي كل هذا الوقت الطويل في مراقبة إنسان واحد، فإننا يمكن أيضاً أن ننظر إلى مجموعة من البشر بأعمار مختلفة، مثلاً من شهر إلى 80 سنة، تغطي فترات أعمار الناس، لنستنتج منها صوراً وأشكالاً وحالات تطور جنس الإنسان منذ ولادته وحتى مماته، دونما حاجة إلى مرافقة إنسان بعينه لدورة حياة كاملة.

هكذا الحال مع النجوم أيضاً، فالفلكيون يراقبون نجوماً ذوات أعمار مختلفة، فالسماء مملوءة بالنجوم، وهي في أعمار مختلفة، فهم ينظرون في هذه النجوم المماثلة للشمس والتي هي بأعمار مختلفة، ويقومون بدراسة خواصها من خلال تحليل الضوء الواصل إلينا منها، وبعد أن يبذلوا جهوداً كبيرة في الرصد والدرس والتحليل، يتمكنون من وضع نظرية متكاملة عن تطور النجوم المماثلة للشمس.

ومن خلال دراسة النجوم الأخرى بأعمار مختلفة أيضاً يستطيعون تكوين تصور عن تطور النجوم ومصائرها.

ومن المعروف أن هذه الدراسات بدأت فعلياً في القرن التاسع عشر من خلال تحليل الضوء القادم من النجوم، فهذا الضوء يحتوي معلومات كثيرة، حيث اشترك آلاف العلماء في هذه الدراسات، وتمكنوا من تكوين نظرية شاملة في تطور النجوم وتبدلها في أحوالها على مدى أعمارها التي تبلغ مليارات السنين.

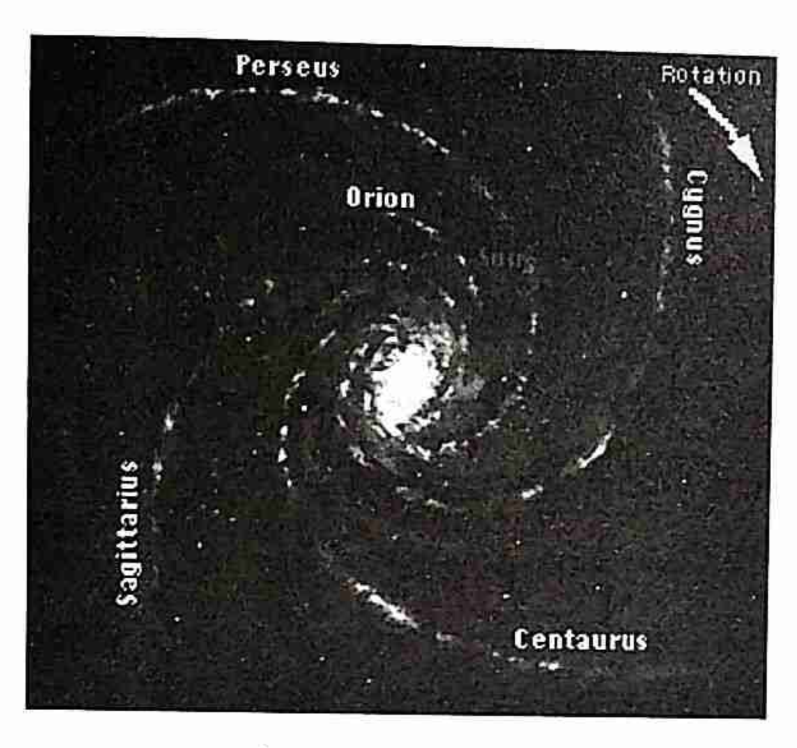
مسار الشمس

يقول الكيالي: (ثبت علمياً أن الشمس تتحرك ضمن مسار مستقيم).

والصحيح: أن الشمس لا تتحرك بخط مستقيم، بل إن حركتها في الفضاء معقدة لأنها تتعرض للجذب الشديد من باطن المجرة، ومن النجوم القريبة منها، وهي تدور أيضاً حول المجرة، ومدة دورتها بحسب علوم الفلك 250 مليون سنة، وهي تسير بخط منحني عموماً في دورانها حول المجرة وليس بخط مستقيم.

ومجرتنا بشكلها العام جسم قرصي تتفرع عنه أذرع متعددة، كل منها يحتوي على آلاف الملايين من النجوم، وهي شموس مثل شمسنا أو أكبر منها أو أصغر. وتقع الشمس عند ثلاثة أخماس المسافة بين مركز المجرة وحافتها القصوى، وكما هو معلوم فإن قطر المجرة هو بحدود 100 ألف سنة ضوئية، أي أن نصف قطرها (المسافة من مركزها إلى حافتها) هو 50 ألف سنة ضوئية، وبذا يكون بعد الشمس عن مركز المجرة هو بحدود 30 ألف سنة ضوئية. ومجرتنا المسماة درب التبانة أو الطريق اللبني Milky Way هي من النوع الحلزوي كما مبين في الشكل أدناه.

وتقع شمسنا والأرض معها طبعاً في أحد تلك الأذرع والذي يسمّى ذراع أورايون Orion Arm، نسبة إلى كوكبه أورايون (الجبار أو الصياد)، وهذا الذراع يحتوي على عدد هائل من النجوم، ونرى منها بالعين المجردة 1029 نجم فقط، أما بقية نجوم الذراع فيمكن رؤيتها بالتلسكوبات. وتحتوي المجرة أيضاً على قدر كبير من السدم، وهي تجمعات غازية هائلة تتكون في داخلها النجوم من خلال تجمع تلك الغازات والأتربة والأحجار على بعضها البعض خلال فترة زمنية طويلة جداً تبلغ مئات الملايين من السنين في أقل التقديرات، وبذلك نقول إن السدم الغازية هي حاضنات النجوم، وقد تتحول السدم بعد مليارات السنين إلى عناقيد نجمية.

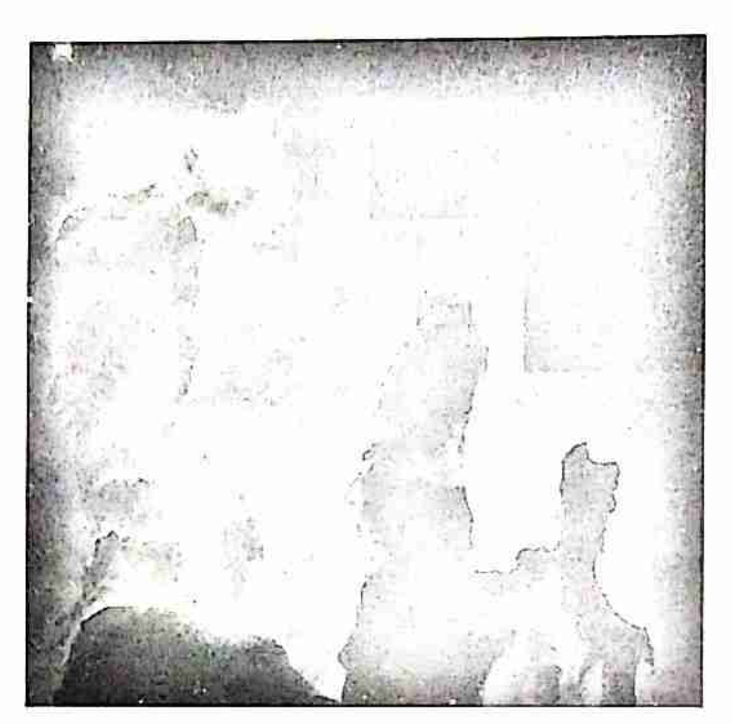


الشكل (7) رسم لمجرة درب التبانة يبين ذراع أورايون الذي تقع فيه شمسنا

وسبب اضطراب حركة الشمس أثناء دورانها حول مركز المجرة تأثرها بالجاذبية الكتلية التي تتبادلها مع النجوم الأخرى، وأكثر هذه النجوم تأثيراً تلك القريبة منها، مثل ألفا قنطورس الذي يبعد أكثر قليلاً من 4 سنين ضوئية، فيستغرق ضوؤه لكي يصل إلينا أكثر من أربع سنين.

وبحصيلة جميع التأثيرات الجذبية على الشمس بما فيها الجاذبية الأساسية من مركز المجرة فإن الشمس تتخذ مسارها وشكل حركتها. وحركتها ليست بخط مستقيم كما يدعي الكيالي، بل هي في مسار منحن إهليلجي على وجه الدقة، يحتوي على تعرجات بسيطة بسبب التأثيرات الجذبية للنجوم القريبة كما قلنا، وأثناء حركة الشمس تنسحب الكواكب والأجرام التابعة للنظام الشمسي التي تدور حول الشمس كلها معها جملة واحدة.





الشكل (8) أنواع مختلفة من السدم في مجرتنا

أكاد أقول إن أكثر كلام الكيالي المنقول عن حقائق العلم الفيزيائي هو كلام غير صحيح، بل هو تزييف للعلم. يستخدم مفردات علمية في كلام لا صحة له من الناحية العلمية، مستغلاً جهل الناس بتلك المسائل التخصصية، ليظهر لهم أنه يأتي بتفاسير علمية متقدمة للقرآن الكريم، وهذا هو الدجل بعينه.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تصويراً متحركاً للشمس مع كواكبها التي تدور حولها بما فيها الأرض قد عرض في الإنترنت يوهم المشاهد أن الكواكب لا تدور حول الشمس بل تسبح في الفضاء خلف الشمس، وهنا أود التنبيه إلى أن مثل هذا التصوير المتحرك لم يراعِ السرعة التي تتحرك بها الشمس وسرعات الكواكب في دورتها حولها، لذلك بدا وكأن الكواكب تسبح منفصلة عن الشمس، وهذا غير صحيح، بل الحركة التموجية للكواكب سببها ارتباطها بالشمس المتحركة في الفضاء في دورانها حول المجرة.

الافتراء على الفوتون

الفوتون هو كبسولة الطاقة الضوئية، فهذا الضوء الذي تطلقه المصابيح على اختلاف أنواعها هو دقائق ضئيلة جداً من الطاقة، أو إن شئت سَمِّها ذرات الضوء، وهي عبارة عن اهتزازات كهرومغناطيسية متحوصلة، إن صح التعبير، في كيان متحيز سمي الفوتون.

يقول الكيالي: (بعد عام 2000 ثبت في اليابان أن كل فوتون ضوئي هو كرة فارغة بداخلها جسم أصغر منها بمائة مرة، جسم يسمى الكوارك، يتحرك حركة اهتزازية فينقر مثل الجرس).

هذا هو النقير برأيه مخالفاً المعنى الذي يُجمع عليه مفسرو القرآن الكريم، وبهذا يفسر معنى (النقير) في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1].

والصحيح: أن الفوتون لا يتألف من كواركات، بل هو كبسولة من الطاقة تتألف من مجال كهرومغناطيسي مُتحيّز، ولا وجود لنقر فيه، بل المجال الكهرومغناطيسي نفسه متذبذب.

يقول الكيالي: (ثبت حسب النظرية الخيطية الحالية أن الكوارك داخله ألف فتيل...)، وبذلك يكون الفتيل جسماً متناهياً في الصغر، وبذلك يحاول أن يفسر قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[2].

والصحيح: أن هذه الفتائل ليست موجودة في داخل الكوارك على هذه الصورة الفجة التي يتحدث بها الكيالي، بل هي تصور نظري آخر لتكوين الجسيمات الأولية، ومنها الكوارك نفسه، ولا علاقة لها بالفوتون حصراً، وتسمى النظرية التي اقترحت مثل هذه الصورة نظرية **الأوتار**، أو **الأوتار الفائقة** String and Superstring Theories.

---

(1) النساء: 124.

(2) النساء: 49.

ومما يؤسف له أن السيد كيالي أخذ منها مفردتها وزيفها لتعبر عن ما يتخيله هو بالفتيل، ليفسِّر به ما تقصده الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾، وهذا الذي يقوله في تفسير الآية كله كلام باطل، والحق أن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج لكل هذه التصويرات ليبين لنا عدالته.

فيزياء الليل

أما فيزياء الليل التي يدّعيها الكيالي فهي مصيبة أخرى في تزييف العلم، إذ نجده هنا يستعير مفهوم المادة المظلمة Dark Matter التي يفترض الفيزيائيون الفلكيون وجودها في الكون لأسباب موضوعية عميقة عندهم، فيزيف هذا المفهوم أيضاً ليجعل منه مادة الليل ومادة الظلال، ثم يوظفه في فيزياء جديدة يعتقد أنه سيحصل بها على جائزة نوبل!! وفي هذا السياق نجده ينسب للقرآن ما ليس فيه، وما لم يقله، فيحرّف الكلم عن مواضعه؛ لكي يوافق هواه وتأويلاته العجيبة.

يقول الكيالي: (القرآن الكريم يقول عن الليل هو مادة مظلمة... فالليل له وزن وكثافة ودرجة حرارة قدرها 3 درجة على مقياس كلفن...).

والصحيح: ليس في القرآن الكريم نص بهذا المفهوم، بل هو افتراء واضح.

ويقول الكيالي: (رائد الفضاء يتحرك في مادة شديدة الخطورة هي المادة السوداء، لذلك يلبس كل هذا اللباس المعقد...).

والصحيح: أن رواد الفضاء يلبسون ملابس خاصة ليس لوقايتهم من تأثيرات المادة المظلمة (التي يسميها السوداء)، بل لوقايتهم من الإشعاعات القصيرة، والرياح الشمسية، التي هي أيونات كهربائية سريعة جداً.

ولمزيد من التفصيل راجع الرابط التالي لجامعة كاليفورنيا التكنولوجية:

http://coolcosmos.ipac.caltech.edu/ask/295-Why-do-astronauts-need-spacesuits

إن هذا الكلام عن ما يسميه الكيالي فيزياء الليل فيه تزييف شديد للعلم؛ لأن المادة المظلمة ليست هي الليل، بل هي مادة افتراضية وضعت من أجل تفسير النقص في كتلة الكون بين الحساب والأرصاد، كما سأبينه، علماً أن المادة المظلمة Dark Matter (وهذه هي التسمية الصحيحة) موجودة في الليل والنهار كما سنبين فيما يلي.

يقول الكيالي: (إن المادة المظلمة تغشى الشمس في الليل فقط)، وبهذا يفسر قوله تعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾.

والحقيقة: أن معنى يغشاها أي يغطيها، وهو كناية عن غيابها تحت الأفق في ظلمة الفضاء، فيكون الليل على الأرض التي غابت عنها الشمس، وإلا فإذا ذهبنا إلى تفسير الكيالي فينبغي أن تكون الشمس موجودة في سماء الأرض، وتأتي ظلمة الليل لتغطيها، وهذا ما لا يحصل، وليس الليل مادة مظلمة أساساً.

ويقول: (في المادة السوداء عندنا ضياء، ولكن ليس عندنا نهار).

والصحيح: أن المادة المظلمة أساساً لا تبعث ضوء ولا ضياء بالتعريف، وهي موجودة في الليل والنهار، كما سأبين في الفقرة التالية.

المادة المظلمة

ولكن: ما حقيقة المادة المظلمة، وهل هي مادة حقيقية، وما هي مكوناتها؟

في عام 2017 كلفتني هيئة تحرير المجلة الأردنية للفيزياء (وهي دورية علمية محكّمة) بكتابة بحث (مراجعة Review) شامل باللغة العربية عن موضوع المادة المظلمة، والهدف هو تنوير القارئ العربي حول هذا الموضوع، وبالفعل كتبت المراجعة، وحرصت على أن تكون مبسطة ودقيقة علمياً في آن واحد، وصدر البحث في المجلة المذكورة بعنوان (**المادة المظلمة: أصولها وفصولها**)[1]. وفيما يلي عرض موجز جداً للبحث الذي يقع في 24 صفحة من صفحات المجلة، أقدمه هنا لكي يطلع القارئ على مدى العبث الذي يمارسه الكيالي مع مفاهيم العلم الصحيح.

يتألف الكون من مجموعة هائلة من المجرات التي هي تجمعات نجمية كبيرة مختلفة الأشكال والأحجام، وقد قام عالم الفلك **إدوين هابل** بتصنيف هذه المجرات، ودراسة حركاتها على نحو مستفيض، ومن خلال تلك الدراسة تمكن من اكتشاف أن الكون بمجمله في حالة توسع مستمر، حيث تتباعد المجرات عن بعضها بسرعات تتناسب طرديًا مع المسافة بينها، وتنتظم أغلب المجرات في عناقيد مجرية، تحوي عادة على مئات وآلاف المجرات، وهنالك العناقيد العظمى Super Clusters التي تحوي على ملايين المجرات.

تتألف المجرات من عدد كبير من النجوم، يتراوح عددها عادة ما بين 100–400 ألف مليون نجم، وهي على أشكال مختلفة، منها الحلزونية، والإهليلجية (البيضوية)، والكروية والمجرات غير المنتظمة، وهنالك تصنيفات فرعية أخرى عديدة.

وتتألف المجرة من انتفاخ وسطي، يحتوى نجوماً بكثافة عالية، وأغلبها قديمة،

(1) محمد باسل الطائي، المجلة الأردنية للفيزياء، المجلد 10 العدد (2) الصفحات 59-83، 2017.

وربما احتوى قلب المجرة على ثقب أسود عظيم. وتنتظم أغلب نجوم المجرة في قرص كبير يسمى القرص المجرّي، وتحيط بالمجرة عادة كرة ذات قطر كبير، يبلغ أضعافاً كثيرة من حجم المجرة، يسمى الهالة المجّرية Galactic Halo، تتألف من غبار وغازات ذات كثافة واطئة، وربما احتوت أيضًا على بعض الأجرام الأخرى.

وهنالك بعض المجرات التي يمتد وسطها ليصبح أشبه بقضيب، وتسمى المجرات الحلزونية القضيبية Spiral Barred Galaxies (انظر الشكل 9).



الشكل (9) مجرة حلزونية قضيبية (المصدر: nasa.gov)

منذ بداية الثلاثينيات من القرن الماضي ظهرت أمام الفلكيين مظاهر غريبة في تصرف حركة المجرات، هذه المظاهر تنبئ بوجود كمية من المادة غير المرئية في أكناف المجرات والعناقيد المجرية.

من جانب آخر فإن دراسة المنشأ الحراري للكون فيما سمي نظرية الانفجار العظيم Big Bang Theory، وانطلاق الكون في حركة تمدد مكاني هائل، قد دل الفلكيين والمتخصصين بعلم الكونيات Cosmology إلى ضرورة أن تكون كمية المادة في الكون أكبر من كمية المادة المنظورة فيه فعلاً. وقد أكدت ذلك قياسات انحراف الضوء القادم من المجرات البعيدة بتأثير الجاذبية الكتلية، بحسب ما تقرره

نظرية النسبية العامة، فقد جاءت نتائج القياسات لتؤكد وجود كمية من المادة في التراكيب الكونية، أكبر مما هو منظور أو مقدّر وجوده في تلك التراكيب.

هذه المظاهر الثلاثة دفعت الفلكيين وعلماء الكونيات إلى القول بوجود كمية كبيرة من مادة غير مرئية تحف بالتراكيب الكونية من مجرات وعناقيد مجرية، وسميت هذه المادة المظلمة أو المعتمة Dark Matter، بالنظر لكونها لا تُصدر ولا تمتص أي نوع من الإشعاعات، ولا تؤثر أو تتأثر إلا بالجاذبية الكتلوية فقط.

قضية المادة المظلمة إذن قضية شائكة ومتشعبة، لها امتدادات عديدة ومعقدة، فهي من جانب قضية مهمة في دراسة وفهم نشأة المجرات والعناقيد المجرية، وحركتها وتطورها، وهي من جانب آخر قضية تتعلق بنشأة الكون وتطوره ومصيره، إذ أن لها ارتباطاً مباشراً بالتحولات التي جرت على أنماط التوسع الكوني منذ الانفجار العظيم، ومنذ العصور الكمومية الأولى التي نشأت فيها أولى بذور المادة والطاقة في الكون وحتى الآن. كما أن لوجود المادة المظلمة دوراً مهماً في حبك بنية الكون Cosmic Web، وتوزيع المادة فيه، بالتالي فإن لوجود المادة المظلمة وكميتها عواقب مهمة تؤثر في تحديد مصير الكون بمجمله.

إن النموذج الكوني السائد حالياً يقوم على فرضية أن محتوى الكون من المادة والطاقة، يتألف من مادة عادية بنسبة قدرها ٪5، ومادة مظلمة بنسبة قدرها ٪26، على شكل كتل مجهولة تحف بالمجرات والعناقيد المجرية، وطاقة مظلمة بنسبة قدرها ٪69، تعمل على توسع الكون، وتباعد مجراته والعناقيد المجرية عن بعضها البعض على نحو متسارع، كما كشفت عنه الأرصاد عام 1998، وحصل المكتشفون على جائزة نوبل عام 2011.



الشكل (10) حشد مجري كبير

يذكر الكيالي أن المادة المظلمة تحيط بالمجرات حتى مسافة خمسة ملايين سنة ضوئية، ولا أدري من أين أتى بهذا الرقم؟! إذ أن معدل المسافة بين المجرات هي مليونا سنة ضوئية، بالتالي فإن المادة المظلمة متداخلة في فضاء ما بين المجرات، وليست بالضرورة ممتدة خارج المجرة لخمسة ملايين سنة ضوئية كما يقول.

ومن الجدير بالذكر هنا أن اثنين من طلبتي في الدراسات العليا قاما بتقديم رسالتيهما للماجستير حول المادة المظلمة، في محاولة لدراسة خصائصها الجذبية، وانتشارها في عناقيد المجرات على وجه الخصوص.

ويفترض أن المادة المظلمة تملأ الكون كله، وتتركز في مناطق الجذب الشديدة، وتحف بالمجرات، كونها تتفاعل جاذبياً فقط، لكنها لا تتفاعل مع الإشعاعات من أي نوع، فهي لا تبعث ولا تمتص أي نوع من الإشعاع.

هذا كل ما هو معروف عن المادة المظلمة.

لكن تأليف تلك المادة الغريبة فيه فرضيات كثيرة، منها أن المادة المظلمة هي جسيمات ضئيلة الكتلة ضعيفة التفاعل تسمى النيوترينوهات Neutrinos. وهنالك فرضية أخرى أنها تتألف من جسيمات لم تكتشف بعد، تسمى فائقة التناظر Supersymmetric. وقد دأب الباحثون على تقصي وجود هذه الجسيمات الغريبة لغرض الكشف عنها، لكن تجاربهم وكواشفهم الدقيقة فشلت في تأشير أي أثر لجسيمات المادة المظلمة.

وكان آخر هذه التجارب الفاشلة هي تجربة كاشف الزينون الكبير تحت الأرض Large Underground Xenon Experiment، ويرمز لها اختصاراً LUX، حيث تم إنشاء خزان كبير لمادة الزينون على عمق 1500 متر تحت الأرض. ولقد بذلت أموال كثيرة، وجهود مميزة، في سبيل إنجاز هذه التجربة على أكمل وجه، وعلى الرغم من المراقبة المتواصلة والدقيقة لعشر سنوات لم يتم الكشف عن أحداث ذات أهمية خاصة في هذه التجربة يمكن تفسيرها على أنها آثار لجسيمات المادة المظلمة.

وفي 21 تموز/ يوليو 2016 أعلنت مجموعة الباحثين في مشروع LUX عن فشل المشروع في الكشف عن أي إشارة موثوقة للجسيمات الكتلوية ضعيفة التفاعل!

وهكذا يبقى موضوع المادة المظلمة لغزاً محيراً حقاً. واليوم يأتي الكيالي ليبشرنا أنه يحضّر بحثاً للحصول على جائزة نوبل في فيزياء الليل والمادة السوداء!!

نظرية الظل وجائزة نوبل

يقول الكيالي إنه يحضّر الآن للحصول على جائزة نوبل، من خلال اكتشافاته في فيزياء الظل! فيرى أن الظل مخلوق قائم بذاته، وأنه ليس بحاجة إلى مصدر ضوء، كالشمس، بل إن مثل هذه المصادر برأيه تكشف الظل فقط، وتُرينا إياه، وبدون وجود هذه المصادر يمكن للظل أن يتحرك بذاته مستقلاً عن المصدر. ويقول إن الظل يحتوي طاقة! ولست أدري ما يعنيه بهذا، هل هي طاقة الفراغ، إن كان يفهم ما طاقة الفراغ؟ أم هي غير ذلك؟

وهذا الكلام الذي يحضره الكيالي لنيل جائزة نوبل خاطئ عقلياً ومنطقياً، ولا صحة له علمياً، فلا يُتعبنَّ نفسه، إنما هو دجل بواح، يريد منه أن يعطي للسامعين انطباعاً كاذباً عن مستوى علميته، وما هو بعليم. فالظل لا ينشأ إلا عندما يحجب شاخص مسار الضوء، والكلام الذي يقوله مردود علمياً ومنطقياً بالبداهة الحسية.

يستعين الكيالي بالآية: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[1] ليقول: (إن الظل هو ما يسمى حالياً المادة السوداء، فنحن نبصر أقل من 10 ٪ من المادة في الكون).

والصحيح: أن المادة السوداء أو المادة المظلمة لا علاقة لها بالظل، ولا علاقة لها بالليل، والتوصيف الذي يقدمه الكيالي للمادة السوداء (المادة المظلمة) فيه تزييف كبير للمقصد العلمي منها، ولأصولها وفصولها كما بينت آنفاً.

يحاول الكيالي أن يدعم كلامه عن الظل بآية من سورة الرعد والتي يقرؤها ناقصة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾[2]، فهو لم يقرأ بالغدو والآصال عمداً؛ لكي يدلّس الخبر على السامعين،

(1) الإسراء: 12.

(2) الرعد: 15.

فلا يكشف مصدر حصول الظلال الذي هو الشمس، إذ تحجبها أجساد الناس، فتصنع ظلالاً على الأرض. هذه الظلال ساجدة لله على الأرض بحكم الخلقة، رغماً عن أنف من يرضى ومن لا يرضى، وهذا هو معنى الآية ومرادها. وإنما يكون ذلك بالغدو أي الصباح بعد شروق الشمس، والآصال أي قبل الغروب، إذ تسجد ظلالنا ممتدة حتى الأفق، فسبحان القهار.

والحق: إن آية الظل التي في سورة الفرقان والتي فيها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [1]، قد احتوت على معلومة مهمة، وإشارة علمية كبيرة، هي واحدة من الإشارات الدالة على مصداقية القرآن الكريم، وكونه من لدن عليم حكيم.

(انظر حديث في اليوتيوب على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=diUhS4un4A4&t=7s).

فهذه الآية من سورة الفرقان تقرر:

أولاً: أن الظل تابع للمصدر الضوئي، وفي هذه الحالة هو الشمس، لذلك قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

وثانياً: تقرر الآية أن الله تعالى قادر على أن يجعل الظل ساكناً، والجعل هنا مقصود به تصميم العالم وهيئته، بحيث يصبح ظلال الأشياء على الأرض ساكناً لا يتحرك.

ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك؟ كيف يمكن للظل أن يجعله الله تعالى ساكناً، دون تغيير سنة أساسية في الكون؟ أليس معناه أن تكون الشمس معلقة في السماء في موقعها دون تغيير؟ وكيف للشمس أن تقف هكذا في السماء في موقع دون تغيير؟ أليس يقتضي هذا تبديل سنة الله تعالى في الكون كله؟

والجواب: أن الله يمكن أن يجعل ظل الأشياء على الأرض ساكناً بأمره، دون أن

(1) الفرقان: 45 - 46.

يغير من سنن الكون تغييراً خطيراً، وذلك بأن يجعل مدة دوران الأرض حول نفسها مساوية لمدة دورانها حول الشمس. ففي هذه الحالة تبقى الشمس معلقة في موضع معين من السماء دون تغيير، وبهذا يصبح ظلال الأشياء الثابتة على سطح الأرض ساكناً لا يزيد ولا ينقص أبداً، بل يصبح الليل في نصف كرة الأرض أبدياً، والنهار أبدياً في النصف الآخر. وهذا ما عبرت عنه الآيتان:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

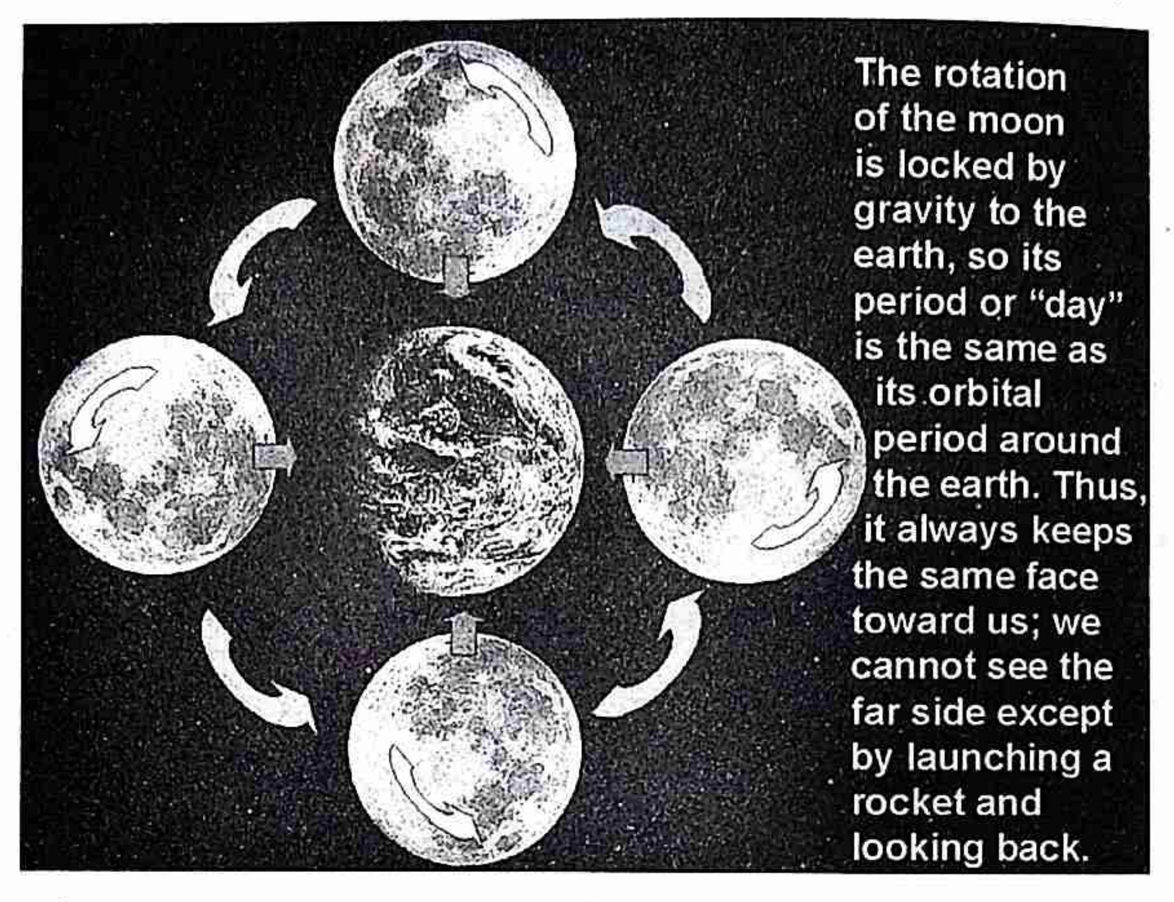
ففي نفس الحالة التي يكون فيها الظل ساكناً، يكون الليل والنهار أبدياً. إن المدار الذي تدور فيه الأرض في مثل هذه الحالة يسمى مداراً متزامناً Synchronous Orbit، حيث يتزامن دوران الكوكب حول نفسه مع دورانه حول الشمس، وهذه الحال موجودة في كواكب تم اكتشافها خارج النظام الشمسي في نظم كوكبية خارجية.

وحالة المدار المتزامن موجودة في نظامنا الشمسي، حيث إن القمر يدور حول نفسه في مدة مساوية لدورانه حول الأرض، فإذا دار القمر حول الأرض ربع دورة، ودار حول نفسه ربع دورة أيضاً، فإن سطحه الذي كان مواجهاً للأرض سيبقى مواجهاً لها، وهو الوجه الذي نسميه الوجه المضيء، بينما يبقى النصف المعاكس للأرض معاكساً لها على الدوام، ونسميه الوجه المظلم للقمر، إذ لا نراه من الأرض أبداً. انظر الشكل (11).

والحالة موجودة أيضاً بين قمر يتبع الكوكب بلوتو يسمى كارون، والكوكب نفسه، حيث يدور بلوتو حول نفسه خلال مدة قدرها 6 ساعات، ويدور قمره حوله خلال 6 ساعات أيضاً، مما يجعل هذا القمر مقيماً في موضع ثابت في سماء الكوكب.

---

(1) القصص: 71 - 72.



الشكل (11) يوضح كيف يظهر لنا القمر بوجه واحد يقابل الأرض دوماً

ولهذا السبب يواجه نصف كرة القمر الأرض على الدوام، فنرى وجهاً واحداً للقمر على الدوام، وكلما طلع البدر رأينا نفس الوجه للقمر دون تغيير على مر الشهور والدهور.

من هذا البيان ندرك سطحية الكيالي وتزويره للعلم حين يقول إن الظل له استقلالية عن المصدر! وكيف أنه يشوه تفسير الآيات التي جاءت بشأنه.

السماوات السبع

بكل سهولة يفسر الكيالي السماوات السبع بأنها طبقات الغلاف الجوي، علماً أن هذه الطبقات يمكن أن تكون خمساً وليس سبعاً. وهذا الذي يذهب إليه الكيالي وغيره إنما هو تفسير خاطئ تماماً، ليس فقط من الناحية العلمية، بل من الناحية العقائدية، فالغلاف الجوي يمتد لمسافة بسيطة نسبياً لا تزيد عن 150 كيلومتر، وفي الأثر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عرج إلى السماوات السبع حتى بلغ السماء السابعة التي فيها سدرة المنتهى، فكيف يتم التوفيق بين مثل هذا التصور السقيم الذي يطرحه الكيالي، والاعتقاد الإسلامي؟ إن مفهوم السماوات السبع مرتبط أيضاً بمقاصد غيبية، بالتالي فإنها ليست فيزيائية بالضرورة، بل لا أجد لها تفسيراً فيزيائياً واضحاً.

حقيقة القول في السماوات السبع

قُمتُ بالتعاون مع زميل لي في قسم اللغة العربية بجامعة اليرموك بدراسة مفردات السماء والسماوات في القرآن الكريم، ومقارنة المفهوم الذي يعرضه القرآن الكريم والمفاهيم الممكنة التي نجدها في علم الفلك[1]، وقد تبين لنا أن تحليل هذه المفاهيم صعب جداً، إذ أن الآيات التي تصف السماء وعددها 120 آية قابلة للتفسير والبيان بعد تصنيفها إلى مجموعات يجمع كل منها جامع واحد.

أما مفهوم السماوات (جمعاً) فإنه يعكس شيئاً أكثر تعقيداً، ويحمل وجوهاً أكثر.

وعلى الرغم من المجهود الكبير الذي بذلناه في ملاحقة تفسير هذه الآيات التي وردت فيها كلمة سماوات (جمعاً) وعددها 190 آية، فإننا لم نتمكن من القطع بتفسير مُحدد يجمع مقاصد الآيات كلها، فوقفنا عند هذا، وقلنا إن مفهوم السماوات

---

(1) لمزيد من التفصيل انظر بحثنا المستفيض المنشور في مجلة المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، المجلد (4) العدد (3) ص 223 - 249، (2008).

(جمعاً) هو من المتشابه الذي لم نقف له على تفسير، بل نقول: الله بمراده أعلم، آمنا به كل من عند ربنا.

والآن يأتي الكيالي فيقول بكل بساطة إن السماوات السبع هي طبقات الغلاف الجوي، هكذا جُزافاً من غير بحث ولا تمحيص.

الليل والنهار

يقدم الكيالي تفسيراً لولوج الليل في النهار، وولووج النهار في الليل، من خلال تصوره الخاطئ لليل بكونه مادة، ويبدو أن الرجل سمع أو قرأ شيئاً عن المادة المظلمة Dark Matter التي يعتقد الفلكيون أنها تملأ الفضاء الكوني كما أسلفنا، فظن أن هذه المادة المظلمة (ويسميها المادة السوداء) هي مادة الليل التي تدخل في النهار فتحوله إلى ظلام.

التفسير الفيزيائي الذي يقدمه الكيالي عن ولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل، غير صحيح علمياً، وتفسيره لآية: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، فيه تحريف لمعاني العربية. نعم الغلاف الجوي ينشر ضوء الشمس ويجليها، لكن ليس على الطريقة التخيلية التي يقدمها الكيالي، الغلاف الجوي ينشر ضوء الشمس من خلال تشتيت الضوء بسبب انعكاسه عن جزيئات غازات الغلاف الجوي.

من المعلوم أن الكون مظلم، والظلام أعم من الضياء، فإن لم يكن هنالك مصدر للضوء، فإن الفضاء يكون مظلماً، ويمكن تنوير الظلمة بضياء عندما يتوفر مصدر للضوء مثل الشمس، إذ يلج الضياء في الظلام، فتظهر الأشياء بانعكاسِ الضياء عنها ودخوله إلى عيوننا.

ومن المعلوم أن أشعة الضوء تسير بخطوط مستقيمة تقريباً، لذلك فما لم يكن في الفضاء جزيئات غازات (غلاف جوي)، أو دقائق غبار، فإن الفضاء يبقى معتماً رغم مرور الضياء من خلاله، بالتالي تعمل جزيئات الغازات ودقائق الغبار على تشتيت أشعة الضوء في جميع الاتجاهات، وهكذا يتحول الفضاء نفسه من العتمة إلى الضياء، حيث يتجّلى مصدر الضياء أثناء ولوجه في الغازات والأتربة التي يحتويها الفضاء.

أما عملية إيلاج الليل في النهار فتحصل من خلال زحف الظلام على الضياء عند انحسار الضوء عن الفضاء، ولكن لا ينبغي أن نتوهم أن الليل هو مادة تلج في النهار حتى يحصل الظلام، لا؛ فالأمر ليس كذلك، بل يكفي أن ينحسر الضياء حتى يكون الليل قد ولج في النهار، وهذا هو الفهم الصحيح والبسيط لولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل، لذلك قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، ولم يقل «وآية لهم النهار نسلخ منه الليل»؛ لأن الليل أعم، والنهار طارئ، فإذا سُلخ النهار ظهر الليل.

(1) سورة يس: 37.

النيوترون والنيوترون المضاد

الحديث عن النيوترون والنيوترون المضاد يدل على جهل علمي شنيع عند الكيالي، فالنيوترون لا يفنى بالنيوترون المضاد، بل إذا التقى أي جسيم مع جسيمه المضاد فإنه يتحول إلى طاقة أي فوتونات. مثلاً عندما يلتقي إلكترون مع إلكترون مضاد (البوزيترون)، فإن كليهما يتحول إلى طاقة على شكل فوتونين، مجموع طاقتهما يساوي مجموع طاقة الإلكترون وطاقة البوزيترون. ولو حصل ما يقوله الكيالي عن النيوترون والنيوترون المضاد لصار الكون كله فوتونات.

هذه بعض الملاحظات، ومن المؤسف أن نرى كل هذا الجمع من عامة الناس يستمع لهذا الدجل الذي يزيف العلم، ويحرف مقاصد القرآن.

يقول الكيالي في موضع آخر: (في عام 2000 أثبت العالم الياباني يوكاوا وجود الكوارك).

والصحيح: أن العالم يوكاوا مات سنة 1981 ولم يتعامل مع الكواركات، بل مع الميزونات، وهي شيء آخر تماماً، وأياً كان معنى الكوارك، والكيالي لا يعرف معنى الكوارك بالتأكيد، فإن كلامه غير صحيح أبداً، بل هو دجل بواح، فهو يستغل مفردات علمية بكلام إنشائي غير صحيح، يزيف به العلم، ويحرف به مقاصد القرآن.

ويُذكرّني الكيالي في حكايته هذه عن يوكاوا بحكاية مماثلة من تراثنا، إذ يُروى أن الإمام أحمد بن حنبل والمحدث يحيى بن معين رضي الله عنهما، وهما من رواة الحديث، كانا في طريقهما إلى الحج، فمرَّا بالبصرة، وحانت صلاة العصر، فدخلا مسجداً فيها، وصلَّيا العصر، ثم جلسا بعد الصلاة يستمعان إلى واعظ يروي أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: روى أحمد بن حنبل ثنا يحيى بن معين عن فلان...عن فلان...أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كذا وكذا...، ثم يأتي بأباطيل

ما أنزل الله بها من سلطان، فجعل يحيى يلتفت إلى أحمد ويقول: أأنت رويت هذا؟ فيرد عليه أحمد فيقول: لا ...، ثم يسأله أحمد: وهل رويته أنت؟ فيقول يحيى: لا والله ما سمعت بهذا من قبل! وجعل الواعظ يكرر روايات باطلة أخرى ينسبها إلى أحمد ويحيى، فقام إليه الإمامان وقالا له: ما ترويه عنا ليس صحيحاً، فقال لهما: ومن أنتما؟ قال أحمد: أنا أحمد بن حنبل، وهذا يحيى بن معين. فقال: هيهات.. هيهات...، أتظنان أنكما فقط بهذه الأسماء؟ لقد لقيتُ خلال حياتي ثلاثين من الناس كلهم اسمه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين!!

سقوط نظرية النسبية

يقول الكيالي: (حالياً سقطت النظرية النسبية بأبعادها الأربعة).

والصحيح: أن هذا كلام باطل، فلو كانت نظرية النسبية وقوانينها قد سقطت فعلاً لما تمكنا من استخدام تقنية GPS التي نسترشد بها للوصول إلى الأماكن، وهذه التقنية تعتمد بشكل دقيق على حسابات نظرية النسبية العامة، إذ لو أننا اعتمدنا قوانين نيوتن في الحساب، لما تمكنت أجهزة الملاحة Navigator المثبتة في سياراتنا من إرشادنا إلى المكان الصحيح، ولتسبب ذلك في توهاننا.

يبدو أن ادعاء الكيالي سقوط نظرية النسبية قد ابتدعه بعبقريته المميزة من خلال قراءته لمعلومات عامة عن نظرية **كالوزا كلاين** التي يذكرها في حديثه، دون أن يعرف معانيها، والتي تقول بوجود خمسة أبعاد، وليس أربعة، إذ يكون البعد الخامس ملتفاً أو منطوياً في حيز مجهري ضيق. وهذه النظرية كان هدفها توحيد قوة الجاذبية والقوة الكهرمغناطيسية، في وصف رياضي واحد.

طرحت النظرية أول أمرها عام 1919 من قبل الرياضياتي الألماني **ثيودور كالوزا**، الذي اقترح إضافة بعد مكاني رابع إلى الأبعاد المكانية الثلاثة التي نعرفها، وهي الطول والعرض والارتفاع، وهكذا يصبح للعلم خمسة أبعاد؛ أربعة مكانية؛ والآخر زماني. ثم جرت محاولات لتطوير هذه النظرية مع **كلاين**، ولكنها لم تحقق المطلب الأساسي في توحيد وصف قوة الجاذبية مع وصف القوة الكهرمغناطيسية، وإنما بقيت هذه النظرية محط اهتمام الفيزيائيين لزمن طويل.

وفي حديث آخر يدَّعي الكيالي أن نظرية الأوتار أو الأوتار الفائقة String Theory (ويسميها نظرية الخيوط) قد أسقطت الزمان كبعد رابع، وأسقطت نظرية النسبية!

والصحيح: أن هذه النظرية التي كان من روادها **مايكل غرين** Michael Green

وجون **شوارتز** John Schwarz لم تُسقط نظرية النسبية، بل جاءت تالية لها ومكملة. والمعلوم أن هذه النظرية ليس لديها حتى الآن أية تطبيقات عملية، أو استنتاجات نظرية قابلة للتحقيق. والأبعاد الملتفة التي هي فرضية لم يتم اكتشافها عملياً حتى الآن بسبب صغرها، وحتى لو وُجدت الأبعاد الملتفة، فإن النسبية لا تسقط بوجودها.

من جانب آخر فإن الكيالي بعشوائيته في إيراد المعلومات يخلط ما بين الفيزيائي **مايكل جرين**، والفيزيائي **أوسكار كلاين**، فيسمي الأخير **مايكل كلاين**! وهو في الحقيقة **أوسكار كلاين** (المتوفى عام 1977)، أما **مايكل كلاين** فهو موسيقي مشهور يتعامل مع الأوتار، ولكن ليست أوتار الزمكان، أو أوتار الطاقة، بل أوتار آلة الغيتار!! لكن ربما كلاهما عند الكيالي (شيء واحد!!).

ما نظرية الخيوط (الأوتار)

يتكلم الكيالي كثيراً عن ما يسميها نظرية الخيوط (ويقصد نظرية الأوتار String Theory)، ويحاول توظيفها في تفسير العديد من الآيات القرآنية.

إن نظرية الأوتار والأوتار الفائقة هي نظرية تم اقتراحها كخطوة إلى الأمام في سبيل توحيد نظرية الجاذبية، ونظرية الكم، والوصول إلى الجاذبية الكمومية Quantum Gravity، والفكرة الأساسية فيها أن يتم تمثيل الجسيمات الأولية الدقيقة ليس كجسيمات نقطوية، بل كأوتار مهتزة. ولم تزل هذه النظرية تأخذ من عناية الفيزيائيين النظريين، ولم يزل الطريق طويلاً للوصول إلى نتائج يمكن التحقق منها تجريبياً.

وهذا يدل على أن الكيالي يلتقط مفردات وأسماء ليس إلا، ثم يصرِّفها على هواه، لايهمه أن يزيف العلم، ولا يهمه أن يخترع معاني جديدة غير معهودة في اللغة، ولا يهمه أن يحرف مقاصد القرآن، تحت مظلة الإعجاز العلمي للقرآن، ليبيع هذا الكلام على أناس لايعرفون كثيراً عن حقائق مفردات العلم التي يتكلم بها، بل تجدهم يهزون له القحوف، ويظنون أنه عالم فيزيائي، وهو ليس من الفيزياء، ولا من علم الفيزياء بشئ.

يقول الكيالي في حلقة متلفزة تحت عنوان (النظرية الخيطية في الكون) ونجده يقرأ من ورقة أمامه: (إن النظرية الخيطية (نظرية الأوتار) ظهرت عام 1995).

والصحيح: أن نظرية الأوتار ظهرت قبل ذلك بكثير، ومرت بمراحل تطور عديدة، ولكن تبين أن هنالك خمسة نماذج لنظرية الأوتار، مما تسبب في حيرة وإزعاج لدى الفيزيائيين في تقرير أي منها ينبغي الاعتماد عليه.

قام الفيزيائي والرياضياتي الأمريكي **إدوارد ويتن** بإثبات أن هذه النماذج الخمسة تتوحد مع بعضها في نموذج واحد عندما نعتبر الفضاء مؤلفاً من 11 بعداً، وليس 10 أبعاد، وسميت هذه لاحقاً نظرية إم M-theory. وهكذا أصبح عمل **ويتن** ملهماً لعدد

كبير من النظريين المشتغلين في نظرية الأوتار، لذلك اعتبر عمله هذا بمثابة الثورة الثانية في تاريخ نظرية الأوتار.

ويقول الكيالي: (إن النظرية الخيطية تقول إن أصغر مايمكن تصوره في الكون هو مجالات طاقة على شكل خيوط شكلها حلقات دائرية غير منتظمة من الطاقة).

والصحيح: أن نظرية الأوتار (وليس الخيوط) تقول إن الجسيمات الأولية المؤلفة للكون هي اهتزازات وترية، وليست نقاطاً مادية، ولها تواتر يتناسب مع مقدار طاقتها.

ويقول الكيالي في حلقته المتلفزة (نظرية الخيوط والكون): (إن الكون قد انشطر منذ أول نشأته إلى قسمين: قسم مرئي، وقسم غير مرئي أسموه (الظل)).

والصحيح: أن هذا ادعاء باطل، وهو من نسج خيال الكيالي نفسه.

ثم يقول الكيالي: ماذا يعني (الظل)؟ وهنا يفسرها بأن لكل جسيمة تحت ذرية جسيمة ظل أثقل منها، وهي المادة الظل التي في المجرات، وهي المادة السوداء، ويقصد بها المادة المظلمة. ثم يحرف المفهوم إلى الليل، ويجعل المادة السوداء هي الليل، ويخبط خبط عشواء فيذهب إلى تحطم التناظر...إلخ.

والصحيح: أن هذا كلام باطل علمياً مائة بالمائة، وقد تكلمت في موضع سابق عن هذه المسألة. والكيالي في حديثه يذكر **إدوين ويتن**، والصحيح أنه **إدوارد ويتن**، وذلك دلالة على عشوائيته في التقاط المعلومات، وعدم دقته.

واقع نظرية الأوتار ومستقبلها

من المؤكد أن نظرية الأوتار نظرية جذابة جداً من الناحية المفاهيمية، وهي فكرة جميلة دون شك، والسبب أنها تجعل الطاقة مكممة بالأساس، بدلاً من أن يكون التكميم ناتج عرضي، وهذه قفزة نوعية في التفكير الفيزيائي. وقد تحمس لها العديد من الفيزيائيين رغبة وطمعاً، إذ أن هذه النظرية تفتح آفاقاً جديدة في الفيزياء،

وعلى الرغم من العمل فيها لعدة عقود، فإن النتائج النظرية المتحصلة من تلك الجهود لم تأت بالثمار المتوقعة التي كان يأملها العاملون عليها، لذلك تعرضت النظرية إلى انتقادات شديدة في وقت كان بعض الفيزيائيين يسميها نظرية كل شيء Theory of Everything! والسبب في هذه الانتقادات أن النظرية لم تفسر أموراً أساسية في فيزياء الكم والجاذبية، ولم تأتِ بتوقعات جديدة قابلة للاختبار في الفيزياء، وهذا ما جعل نجم النظرية يخفت بعد زمن من الدفق الإعلامي الكبير لترويجها وترويج ما يؤمل منها.

لن أتوقع شيئاً كبيراً لمستقبل هذه النظرية، ما لم يحصل تغيير في معالجة موضوع الزمن، والتمكن من التعامل الذري مع الزمن، أي أخذ الزمن ذرات منفصلة، وهذا ما لم يحصل حتى الآن في إطار هذه النظرية.

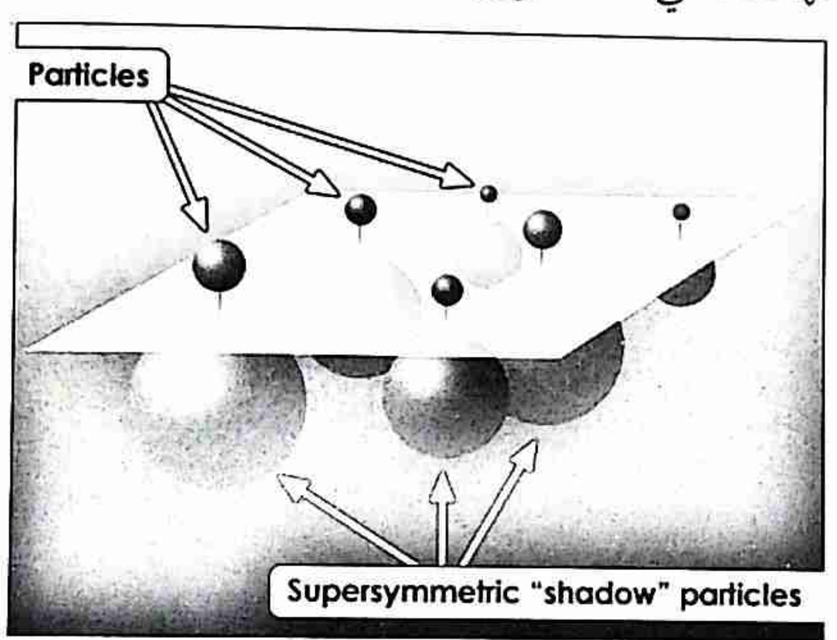
التوازن الفائق

يتكلم الكيالي عن شيء يسميه (التوازن الفائق)، ولم أفهم أول الأمر ما يقصده بهذا المصطلح الجديد، لكنني بعد الاستماع إلى بقية حديثه في هذا الموضوع وجدت أنه يقصد التناظر الفائق Supersymmetry. وهذه مسألة أظن أنها أكبر كثيراً من أن يستوعبها الكيالي. لذلك نجده قد مسخ هذا المفهوم الفيزيائي، وحوَّل معناه إلى شيء آخر، إذ يقول: (إن نظرية التوازن الفائق تقول إن القوى الأربعة الموجودة في الكون وهي النووية الشديدة (ويسميها الكبيرة)، والنووية الضعيفة، والكهرومغناطيسية، والجاذبية، هي قوة موحدة منذ اللحظة الأولى لنشوء الكون). ثم يقول: (عندنا في سورة الكهف: لا قوة إلا بالله).

ولكي يوضح مرة ثانية ما هو التناظر الفائق يقول: (كل جسيمة لها جسيمة ظل). دون أن يفسر لنا ما معنى جسيمة الظل، لكن على الأغلب ربما يكون هذا ما علق برأسه من قراءته لمقال صحفي عن التناظر الفائق، حيث ورد هذا التعبير (جسيمات الظل) في بعض المقالات (انظر الشكل)، وطبعاً لا يقصد الفيزيائيون بهذا التعبير الظل الذي يتألف من تقاطع الضوء مع الشواخص، بل يقصدون به النظائر، كما نقول حكومة الظل في الدول الديمقراطية (بريطانيا مثلاً)، والتي فيها وزراء في الظل من حزب المعارضة. لكن الكيالي يأخذ الكلمة ويصرِّفها كيف يشاء، غير مكترث بمضمونها العلمي الصحيح، وبموجب تصريف الكيالي للمصطلح يمكن أن يقول أحدنا إن حكومة الظل هي حكومة الليل، أو حكومة المادة السوداء.

والصحيح: أن الفيزيائيين عرفوا أن الجسيمات في العالم تنتمي إلى عائلتين: أحدها يؤلف المادة، مثل الإلكترونات، والبروتونات، والنيوترونات، وهذه جميعاً من عائلة تسمى فيرميونات Fermions. والأخرى تؤلف القوى، مثل الفوتونات (جسيمات الضوء التي تنقل القوة الكهرمغناطيسية)، والجرافيتونات (جسيمات تنقل قوة الجاذبية)، والغلوونات (جسيمات تنقل القوى النووية الشديدة) والبوزونات

الثقيلة (جسيمات تنقل القوى النووية الضعيفة)، وهذه تنتمي كلها إلى عائلة تسمى البوزونات Bosons. وبموجب فرضية التناظر (وليس التوازن) الفائق فإن لكل جسيمة من الجسيمات التي هي من صنف المادة (أي من عائلة الفيرميونات)، جسيمة نظيرة لها تماماً في عائلة البوزونات.



الشكل (12) جسيمات التناظر الفائق

هذه الفرضية استخرجها الفيزيائيون النظريون من خلال دراستهم لعالم الجسيمات الأولية التي اكتشفوها، وتحليلهم لتفاعلاتها مع بعضها، ونوع القوى الفاعلة بينها. لكن هذا التوقع الذي سمي بالتناظر الفائق يبقى حتى الآن نظرياً، إذ لم يتم اكتشاف أي منها في المختبرات، وقد كان من المؤمل أن تظهر بعض هذه الجسيمات على الأقل في تجارب المصادم الهادروني الكبير Large Hadron Collider التي أجريت عام 2012، لكن للأسف لم يتم الكشف عن أي منها.

(شاهد حديثي على اليوتيوب عن المصادم الهادروني الكبير واكتشاف بوزونات هيجز على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=YTvlINc2Gck).

وفي كلام الكيالي تزييف شديد للعلم، وتعسف كبير في تفسير القرآن، فمثلاً يقول: (إن نظرية إم تقول إن الأبعاد الثمانية الملتفة هي التي تمسك الكون، والقرآن يقول في الآية 40 (والصحيح الآية 41) من سورة فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [1]، وفي آية الكرسي من سورة البقرة: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾[2]، فالله يمسك هذه الأوتار ويديرها بسرعة الضوء)، حسب قوله.

والصحيح: أن الكيالي يقدم معلومات نظرية مشوهة هنا أيضاً، ويقحمها في تفسير آيات القرآن، مما يشوه المعنى القرآني المقصود، فضلاً عن تزييف المعنى العلمي، ويعطي للمستمع أو القارئ تصورات خاطئة عن المقاصد القرآنية.

إن هذا ليس اجتهاداً بل هو تخريب، فكيف نحكم أن الله يمسك هذه الأوتار؟ وما هي أصلاً هذه الأوتار، وهي لم تزل مسمى في نظرية لم يثبت منها شيء حتى الآن؟ وكيف عرف الكيالي أن الله يديرها بسرعة الضوء، كما يدعي، وليس بسرعة أخرى؟ وهل لو أن الله يمسك السماوات والأرض بسرعة الضوء المحدودة، فهل سيبقى الكون متماسكاً؟ كيف للكون أن يتماسك بسرعة الضوء، إذ نعلم أن بعض أجزائه تبعد عن بعضها الآخر مليارات السنين الضوئية؟ أي أن الأمر الإلهي سيستغرق مليارات السنين لتنفيذه إذا كان سارياً بسرعة الضوء، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [3]، لا بد من قوة أخرى، ولابد من سرعة أخرى، فوق هذه القوى وتلك السرع التي نعرفها، وإلا فإن الكون لن يتماسك.

إن إقحام هذه المعلومات العلمية المشوهة في تفسير القرآن لهو وتلاعب غير حكيم، بل هو كمن يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً من أجل الشهرة والمال.

(1) فاطر: من الآية 41.
(2) البقرة: من الآية 255.
(3) القمر: 50.

قصة ذي القرنين

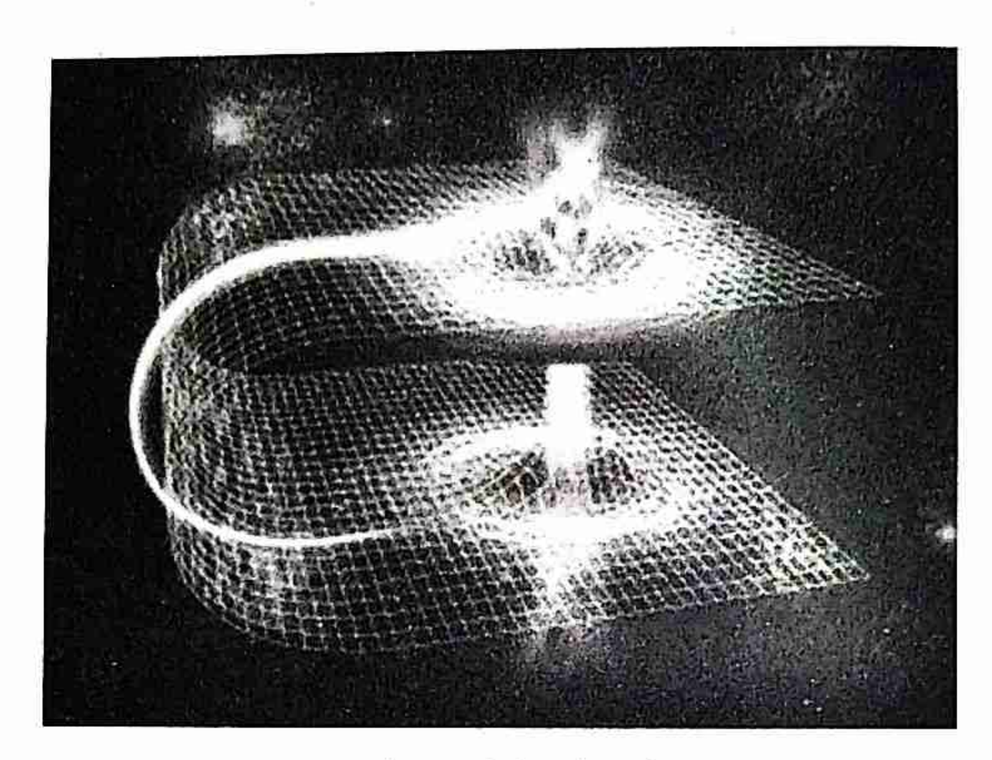
يحاول الكيالي إقحام مفردات من الفيزياء الحديثة في تفسير معجزات وحوادث ذكرها القرآن، ومنها قصة ذي القرنين، فيقوم بتبني معاني للمفردات مخالفة لحقيقتها، غير مكترث بالتأسيس العلمي الصحيح لكلامه، متجرئاً على العلم وعلى القرآن، مزيفاً العلم ومحرفاً مقاصد القرآن.

وفي كلامه عن قصة ذي القرنين التي وردت في سورة الكهف خبط ولغو لا حقيقة له، فهو يتحدث تارة عن الثقوب الدودية Wormholes وتارة أخرى عن الأبعاد الملتفة، دون أن يذكر للسامعين والمشاهدين أن هذه الأبعاد الملتفة هي أبعاد مجهرية.

والثقوب الدودية هي الأخرى تخمينات نظرية ظهرت بعد اكتشاف الثقوب السود دراسة التأثيرات الكمومية للطاقة قرب الثقوب السود، فتبين نظرياً أن بالإمكان أن يتصل ثقبان أسودان في مكانين متباعدين من كون آخر، من خلال معبر يمر بينها كما هو مبين في الشكل (13).

وهكذا تم توظيف الفكرة في خيال بعض الفيزيائيين النظريين إلى جعل هذا الممر معبراً قصيراً يصل بين نقطتين متباعدتين في الفضاء. وظن أصحاب هذا الخيال المتطرف أن بالإمكان سلوك هذا المعبر، وقطع مسافات هائلة في الكون، خلال زمن قصير جداً. وقد سمي هذا المعبر الثقب الدودي لأنه يشبه الثقب الذي تصنعه دودة في جسم تفاحة، فيصل بين نقطتين متباعدتين على سطحها.

وعموماً فإن الثقب الدودي مجهري، فضلاً عن أنه يقفل على نفسه حالما يدخل إليه جسيم ذو كتلة موجبة، وعلى العموم فإن هذه كلها تخيلات نظرية، أما الواقع العملي فشيء آخر.



الشكل (13) الثقب الدودي

يأتي الكيالي ويجعل من هذه الخيالات النظرية واقعاً وحقائق علمية قطعية، دون أن يعلم شيئاً عن تفاصيلها علمياً، فيوظفها في تفسير القرآن الكريم، ويتحدث للناس عن انتقال ذي القرنين على سطح الأرض بين مشرق الشمس ومغربها! فكيف استطاع ذو القرنين بقرنيه الكبيرين أن يدخل من ذلك الثقب الدودي المجهري، ويمر من خلال تلك الأبعاد المجرية؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، إنه يكذب على العلم، ويكذب على القرآن بافتراءاته هذه.

أما حكاياته العجيبة الغريبة عن إعادة الزمن، أي انعكاسية الزمن، التي يحشرها لتفسير طيور النبي إبراهيم عليه السلام، وعصا النبي موسى عليه السلام، التي انقلبت بأمر الله حية، ومن ثم معجزة عودة قتيل بني إسرائيل إلى الحياة بعد ضربه ببعض البقرة المذبوحة، فكلها كلام باطل من وجوهه اللغوية، ووجوهه العلمية، ووجوهه التصويرية أيضاً، إذ المراد من صريح الآيات أن هذه معجزات حصلت في الزمن وليس عودة بالزمن.

أما من الناحية العلمية فإن انعكاسية الزمن التي يقصدها ليست إلا حالة نظرية، والفيزياء الحرارية تنفي أن يكون هنالك إمكانية لعودة الزمن، وتقرر اتجاهاً واحداً للزمن في هذا العالم، وهذا ما يسمونه سهم الزمن الثرموداينميكي Thermodynamic Arrow of Time، وإلا لكان بالإمكان مثلاً أن يقتل أحدهم والد علي الكيالي قبل أن ينجبه، لكي يمنع ولادته، ويكفي الناس شر أضاليله، كما فعل العبد الصالح مع الغلام فيستبق الحدث.

إن انعكاسية الزمن تخالف واقع الفيزياء الذي يقرر أن للزمن اتجاهاً واحداً. إن حشر مفردات علمية لتفسير هذه الحوادث لا يكفي، بل المطلوب أن يكون التفسير المقدم متسقاً مع أركانه ومكوناته، منطقياً Consistent، وتفاسير الكيالي هنا ليست متسقة ذاتياً.

من الضروري الانتباه إلى أن الحياة الأخرى بعد الموت هي نوع آخر من الحياة لها نوع آخر من القوانين. نعم هذا ممكن، بل أشار القرآن إليه في مواضع عديدة. لكن من غير الصحيح أن يتلاعب المرء بالمفردات، كما يتلاعب بها الكيالي بهلوانياً، فيتكلم عن مسألة حصلت في عالمنا الفيزيائي، ثم ينقلنا إلى قوانين يتخيلها، لتكون فاعلة في حياة أخرى، وفي نشأة أخرى، لكنه يطبقها على حياتنا هذه في هذا العالم مستغلاً محدودية معلومات السامعين، ومغلفاً إياها بلبوس العلم كذباً وبهتاناً.

أما إذا كان الكيالي يدعي أننا يمكن أن ننتقل من عالم إلى آخر، هكذا فجأة، فذلك مما يتطلب آليات وخوارق يعجز الكيالي تماماً عن تصورها أصلاً.

الجن النفاث

يتساءل **الكيالي** في أحد برامجه: (كيف يتحرك الجن؟ ليجيب: يتحركون بالمعنى العصر الحديث بما يسمى الدفع النفاث).

ولكن كيف عرف الكيالي هذا وما مصدره؟ إنه يورد الحديث الشريف في صحيح البخاري وصحيح مسلم الذي يقول (**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط**)، ليقول: (أي بمعنى الدفع النفاث مثلما تتحرك الطائرات النفاثة التي نراها حالياً)!.

إن هذا التوظيف للنص الوارد في الحديث الشريف غير مقبول أساساً؛ لأن الكيالي لم يخبرنا عن شدة الدفع Thrust الذي يولده ضراط الجن، ولم يحسب رياضياً ما إذا كان ذلك الدفع كافياً لتوليد تسارع يُكسب الجن تلك السرعة الهائلة التي نتخيلها.

إن الجن ليسوا كائنات مادية، وضراطهم ليس غازات ساخنة بالضرورة، والحديث الشريف لا يقصد هذا أبداً، بل مقصود الحديث كناية عن الخذلان الذي يصيب الشيطان عند رفع الأذان، فالرسول صلى الله عليه وسلم إنما يستهزء بالشيطان في قوله هذا.

أقول: لو كان الداعمون للدجال الكيالي من أهل الجاه والسلطان لديهم ذرة من الحياء والكرامة لمنعوه من الظهور على فضائياتهم بعد نشره هذا التفسير المبتذل للحديث الشريف. ولكي تعلموا مدى الضرر الذي سببه كلام الكيالي السخيف هذا يمكن الرجوع إلى تعليقات الملحدين على هذا الكلام.

المادة والطاقة والروح

يقول الكيالي: (إن النور هو مادة بالنسبة للملائكة، مخلوقين منها، وهو طاقة بالنسبة لنا).

ولكن من أين عرف هذا؟ ما معنى المادة عنده، وما صفاتها؟

ويقول الكيالي: (علم الفيزياء يؤكد أن الكون كله طاقة، ولا توجد مادة صلبة).

وهذا الكلام غير صحيح طبعاً. لكن مرة أخرى يظهر السؤال: ما معنى المادة عند الكيالي، وما معنى الطاقة، وما خصائصها؟

يقول: (الطاقة في الكون ثلاثة مستويات؛ طاقة سريعة الإيقاع جداً، وهذه لا يمكن أن نراها على الإطلاق، وهذه هي طاقة عالم الملائكة وإبليس والجن، واهتزازات متوسطة الإيقاع يمكن كشفها بالرادارات تقريباً! وهنالك اهتزازات واطئة جداً مثل الجدران ...إلخ).

ويقول أيضاً: (إن الإنسان حوله سبعة مجالات من الطاقة. لذلك عندما يدخل الإنسان بين جمع من الناس يشعر بالضيق؛ لأن مجالات الطاقة تتداخل).

ثم يأخذ الكيالي في الحديث عن شعوذة الشاكرات الهندية، ليحاول عن طريقها تفسير بعض الخوارق، كأفعال العبد الصالح التي أشارت اليها سورة الكهف، أو الإلهام الذي ورد إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في حكاية سارية، وكله كلام حشو في حشو، يجلس أمامه المساكين يستمعون دون وعي منهم، بقدر ما ينصدعون بالكلمات والعبارات الغامضة غير المترابطة التي ترد على أسماعهم رغم عدم صحتها.

المشكلة أن الكيالي يخلط ما هو روحي ومعنوي مع ما هو مادي وفيزيائي، وهذا نوع آخر من الشعوذة التي يمارسها، وليته أقام كلامه في هذا الشأن على أسس متينة لها صدى مميز في الفيزياء وبقية العلوم الطبيعية، لربما قلنا إن الرجل يأتي باجتهادات

جديدة تستدعي التأمل والتفكير، لكن للأسف هذا الرجل لا يمتلك حججاً عقلية أو علمية ذات قيمة، بل كل ما يقدمه في هذا الشأن كلام في كلام.

المادة والطاقة

يُكثر الكيالي الحديث عن المادة والطاقة، وكثيراً ما يكرر كلمة (فيزيائياً) خلال حديثه، وهو في هذا يدجّل القول لكي يوهم المستمع أن حديثه يستند إلى أسس علمية. وفي حديث له عن (المادة والطاقة في القرآن) يقول: (نحن في صراع بين المادة والطاقة، والقرآن يتحددث كثيراً عن صراعنا مع الطاقة وهي الشياطين، فالإنسان من مادة والشيطان من طاقة).

في الحقيقة هذا الكلام الذي يطرحه الكيالي ليس من ورائه طائل، بل هو مظلل، فالإنسان فيزيائياً هو مادة وطاقة، أما الشيطان فليس بالضرورة أنه مؤلف من طاقة، بل هو خلق آخر وصفه الله تعالى بأنه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1]، وقال عن الجن: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾[2]، وأياً كان معنى المارج فالأصل في خلق الشيطان كما هو في القرآن النار، والنار هي مادة وطاقة، وليست طاقة صرفة، حيث أنها تتألف من الجسيمات الدقيقة المتحركة بسرعة عالية، وعلمياً لا تعرف الطاقة الصرفة إلا بشعاع الضوء، أو أية أشعة كهرومغناطيسية أخرى، مثل الأمواج الحرارية، أو أمواج أشعة إكس، أو أشعة جاما النووية.

لكن كلمة مارج فيها معنى الحركة، وفي التفاسير أن مارج النار هو خالصها وأحسنها، ومن وجه آخر فهي الحركة والامتزاج[3]، وحركة الأمواج الكهرومغناطيسية لا تقوم إلا بوجود الجزء الخيالي الذي هو جذر الكميات السالبة، وأقله الكمية الخيالية $\sqrt{-1}$ التي يرمز لها بالحرف (i)، وبعدم وجود هذه الكمية لا تنتقل الموجات الكهرومغناطيسية في الفراغ، بل تبقى جامدة مكانها، هذا ما يعرفه الفيزيائيون والمهندسون الكهربائيون،

---

(1) الكهف: 50.

(2) الرحمن: 15.

(3) انظر تفسير الطبري للآية (15) من سورة الرحمن.

ولكن ربما ليس المهندسون المعماريون من أمثال الكيالي.

أقول: إن هذا الفصل بين المادة والطاقة، وذلك الادعاء الفارغ من أننا في حالة صراع بين المادة والطاقة، كلام لا أصل له، بل إن وجودنا هو تكامل وتفاعل مستمر بين المادة والطاقة.

من جانب آخر فإن الكيالي يخلط بين معنى الطاقة الفيزيائي، والطاقة بالمقصد الروحي أو النفسي أي المعنوي، فيتحدث عن الشاكرات، وما أدراك ما الشاكرات؟! فهي جزء من التوصيفات الهندية والصينية لجسم الإنسان، ويستخدمونها في الطب البديل لمعالجة بعض الأمراض، أو التوعكات العضلية، أو العصبية.

وهكذا نجد الكيالي يلعب على حبال عديدة في تفسير القرآن، وعلى علوم الفيزياء، ومن ثم على مفاهيم هندية وصينية، وهذه كلها علوم غير منسجمة مع بعضها، ولا ينبغي الخلط بينها؛ لأن لكل منها طريقته وأسلوبه ومصادره ومفاهيمه.

وفي الحديث عن الطاقة لابد أن يأتي على ذكر الملائكة، فإنهم كائنات نورانية، لكن هل الملائكة طاقة فيزيائية؟ وما نوعها، وما ترددها، وما كيانها؟

لا أجد جواباً عند الكيالي، والسبب أن الملائكة ليسوا طاقة فيزيائية، والكلام نفسه ينطبق على الشياطين، فإنهم وإن كانوا كائنات من أصل ناري بالمعنى المجازي الذي يقدمه القرآن، إلا أنهم ليسوا طاقة فيزيائية، ولو صح أن كانت الملائكة أو الشياطين طاقة فيزيائية، لَتَحَسَّتْهُم الأجهزة الدقيقة جداً التي ترصد أشعة الخلفية الكونية المايكروية Cosmic Microwave Background، فهذه المجسات ذات دقة عالية، وحساسية هائلة، تستطيع الكشف عن الإشعاعات الحرارية التي تصدر عن جسم درجة حرارته 270 درجة مئوية تحت الصفر المطلق. هذه الأجهزة والمجسات الدقيقة لم تكشف شيئاً من هذه الطاقة التي تتحرك نزولاً أو صعوداً، ولو كان الأمر كذلك، لتمكَّنا من مشاهدة الشياطين والملائكة في طيف الأمواج الكونية المايكروية التي تقدمها لنا هذه المجسات.

يقول الكيالي: (إن القرآن أنزل ليلاً)، وبالتالي يستنتج أن الليل يمنحنا الطاقة. نعم إن كان القصد أن الراحة توفر لنا تخزين الطاقة فهذا صحيح، ولكن إذا كان المقصود أن الليل نفسه بنفسه يمنحنا طاقة، فهذا خيال واسع لا صحة له.

الليل لا يمنحنا الطاقة، لكن سكوننا في الليل هو الذي يتيح لأجسامنا توفير قدر من الطاقة من خلال العمليات الحيوية فينا، لنصحو بعده نشيطين بطاقة حيوية كبيرة، نصرفها خلال يومنا عاملين كادحين، لذلك قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[1]، فالسبات الذي ننعم به في الليل هو الذي يمكّننا من تخزين الطاقة التي نحتاجها في اليوم التالي، ويقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾[2]، والسُبات من السبت وهو السكون.

أما تنزل القرآن ليلاً فليس حصراً، بل نزل القرآن ليلاً ونهاراً، ضحى وعشية وظهيرة، وفي كل وقت شاء الله أن ينزله، إنما حضَّ على العبادة في الليل وقيامه لسببين: **الأول** كونه يوفر الهدوء النفسي، والراحة الفكرية، فيتفرغ فيه العبد للتأمل، وتحقيق صلة الوصل مع خالقه. **والثاني** لصحة العباد بمنهجم فرصة لتحريك أجسامهم الثقيلة، دفعاً لنوم ثقيل قد يؤذيهم إذا طال.

وزن الأعمال

يوغل الكيالي في تفسير الجوانب الغيبية مادياً، فيحاول توظيف مفهوم العلاقة بين المادة والطاقة في كيفية حساب أجر الصالحين في الآخرة.

يقول: (الأعمال طاقة، والطاقة يحولها الله إلى كتلة، بأن يقسمها على مربع سرعة الضوء، بحسب قانون أينشتاين الذي يقول إن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء).

والكتلة (حسب قوله) هي وزن، وهكذا توزن الأعمال الصالحة برأيه.

---

(1) الأنعام: 96.
(2) الفرقان: 47.

والصحيح: أن الكتلة ليست هي الوزن؛ لأن الوزن هو مقدار قوة جذب الأرض للجسم، في حين أن الكتلة هي الممانعة التي يبديها الجسم لتغيير حالته الحركية، وفي هذا ما يعكس جهل الكيالي بأبسط مفاهيم الفيزياء.

فضلاً عن هذا فإن من المعيب حقاً أن يتصور أحدنا أن الأمور الغيبية التي تحدث عنها القرآن يتم تفسيرها وفهمها على هذا النحو المادي البائس، لذلك فعندما يُتهم الكيالي بتحريف مقاصد القرآن، فإن هذا الاتهام حق، وهذا الكائن يجب أن يوقف عند حدِّه ولا يُسمح له بالتجاوز.

السببية والأسباب

يقول الكيالي: (الفيزيائيون جاؤوا وقالوا إن الماء فيه قوة دفع. والله تعالى يقول: نحن نحمل السفن وليس قوة دفع الماء (ويسميها دافعة أرخميدس)).

هذا كلام يفتقر إلى الصياغة الصحيحة، وينقصه التحقيق. نعم إن الله تعالى هو مُسبب الأسباب، لكن لابد وفقاً لسنته القائمة في العالم من أسباب ثانوية، إذ أن هذه الأسباب بمجموعها تؤلف القوانين التي يسمونها قوانين طبيعية، ومنها نعرف أن العالم يقوم بنظام وليس بعشوائية، وإن إدارة هذا العالم وتطوره إنما تكون بقوانين يتحرك وفقاً لها، وليس بقرارات عشوائية ومعجزات، فلو كان العالم يسير بالمعجزات، ما عرفنا الله الذي يسيره، بل لكان حصول الحوادث فيه عشوائياً دون أسباب، مما يغيّب عن عقولنا حقيقة وجود الصانع القيوم، لكن وجود القوانين والانتظام في سلوك العالم، ووجود الأسباب للحوادث والتغيرات، يؤكد لعقولنا ضرورة وجود الصانع العليم، والمهيمن البصير، الذي هو مسبب الأسباب كلها، فلا ينبغي وصف قيومية الله على العالم بنفي الأسباب، إذ أن هذا أسلوب فج، ينفي وجود العلاقات السببية.

وهنا فائدة لابد من ذكرها بشأن السببية في العقيدة الإسلامية، وهي أن العقيدة الإسلامية الصحيحة لم تنف السببية كما يُشاع زوراً وبهتاناً، بل نفت الحتمية السببية Causal Determinism، أي أنكرت أن يكون حضور الأسباب ملزماً لوقوع الحدث (المُسَبب) إلزاما محتماً، فجعلت وقوع الحوادث معلقاً على إرادة فاعل مُختار، وبهذا قررت العقيدة الإسلامية حضور مبدأ الاحتمالية، والتجويز في السببية التي تحصل بها الحوادث.

وهذا هو بالفعل ما كشفت عنه الفيزياء الحديثة، فيزياء الكوانتم، في القرن العشرين، فبينت أن حقيقة الأسباب هي علاقات اقتران، نسميها علاقات سببية، وأن الأحداث تقع في العالم ليس على وجه الوجوب، بل هي حوادث بين عديد

من الحوادث الممكنة، التي قد يقع الواحد منها وقد لا يقع، ولكل من هذه الحوادث الممكنة احتمال يتحدد عند حل المعادلات الفيزيائية التي تصف النظام، وقد يحصل أن يقع حادث ذو احتمال ضعيف، ولا يقع حادث ذو احتمال كبير، لكننا تعودنا أن أغلب الحوادث ذات الاحتمالية العالية تقع، أما معنى الحتمية فهو أن وقوع الحوادث يكون واجباً عند حضور أسبابها، وهذا ما يجعلنا نقول إنه على الرغم من أن الحوادث ذات الاحتمالية العالية مرجَّحٌ وقوعها، لكننا لا يمكن أن نقول إنها لابد أن تقع.

لذلك ومن الناحية الفلسفية والمنطقية يتوجب وجود من يقوم بالاختيار بين الاحتمالات، ويرجح وقوع الحدث أو عدم وقوعه، وهذا هو مسبب الأسباب، واجب الوجود، الحي القيوم.

أؤكد مرة ثانية أن تغييب العلاقات السببية يجعل العالم فوضوياً، يعسر علينا فهمه على نحو يكون فيه نظام وأمر order، وهذا مخالف لعقيدة الإسلام، وصد عن السبيل إلى معرفة الله القيوم، الفاعل المريد، الذي يقوم بهذا العالم وفق نظم وعلاقات تحفظ ديمومته، وتُديم بقاءه، وفقاً لسنن الخالق جلّ وعلا.

عدم التزام الكيالي بمنهج محدد

شاهدنا الكيالي يزيف العلم أحياناً كثيرة، لكي يفسر آيات القرآن كما يشتهي، لكنني وجدت أنه يُعرض عن تفاسيره ومنهجه بين الحين والآخر لتوافق هواه في التفسير!

فمثلاً عند تقسيمه للجنان وجدها خمسة أنواع، أوطؤها عنده جنة المأوى، وهي جنة ذات مستوى أوطأ من الفردوس، وأوطأ من جنة عدن! إذ يقول إنها المأوى، ويستدل بالآية: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾[1]، أن فيها خياماً كخيام اللاجئين، غير مكترث بالوصف الراقي الذي يقدمه القرآن لهذه الجنان. ثم يذكر حال سكانها كما في الآية: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾[2]، فيما يرى أن جنة الفردوس أرقى؛ لأن فيها فرشاً، وأصحابها: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[3]، لكنه يكون هنا قد ناقض نفسه، إذ كان ينبغي أن تكون الجنة الأوطأ التي يصورها كمخيم للاجئين، أفضل حالاً من جنة (عدن)؛ لأن ساكنيها يجلسون على كراسي هزازة، أو مراجيح، وليس على فرش وحسب، إذ بحسب تفسيره للمفردات ذات المقطع المكرر المؤلف من حرفين مثل (عسعس)، و(دمدم)، و(حصحص)، فإن الرفرف (رف رف) يوحي لنا بحركة اهتزازية أيضاً! أي أنهم جالسون على كراسي أو مراجيح هزازة!! فأين هذا من الوصف الذي قدمه الكيالي؟

وفي نفس الحديث يقول لنا إن المجرمين يُحشرون يوم القيامة زرقاً، لكنه يقول إن طاقتهم تكون واطئة جداً؟ ولا أدري كيف ضبط هذا؟! إذ الصحيح أن تكون طاقتهم عالية، بحسب ما يحشره من صفات فيزيائية للأمور الغيبية، إذ المعروف أن اللون الأزرق طاقته أعلى من طاقة الألوان الأخرى، فالفوتون الذي يمثل اللون الأزرق، أعلى طاقة من فوتونات الألوان الأخرى، بحسب الفيزياء التي نعرفها، فلماذا تكون طاقة المجرمين الزرق واطئة إذن؟ توافق واضح مع منهجيته العشوائية الهوائية طبعاً.

---

(1) الرحمن: 72.

(2) الرحمن: 76.

(3) الرحمن: 54.

الدعاية والترويج للكيالي

لست أدري على وجه التحديد كيف قفز علي منصور الكيالي إلى واجه الإعلام الديني، لكن من المؤكد أن فضائية دبي ساهمت بتقديمه إلى الجمهور العربي على نطاق واسع عبر اللقاءات التي أجريت معه، وقد قام الكيالي بتوظيف مفاهيم علمية مزيفة في سبيل الترويج لتفاسيره الجديدة للقرآن، وقد خُدع الناس بما يقول إذ أنه طالما يكرر عبارة (ثبت علمياً)، وعبارة (أعلنت وكالة ناسا)، وعبارة (في عام كذا اكتشف العالم الياباني كذا... وكذا..)، وهو في الحقيقة يلفق هذه الحكايات غير الصحيحة، وجمهورنا العربي يستقبل دون تدقيق وتمحيص.

من جانب آخر فإن سكوت المتخصصين العرب عن طروحاته المزيفة للعلم أتاحت له فرصة في الانتشار، ومن المؤسف أن جمهورنا العربي يركض وراء كل ناعق يأتي بالعجائب والغرائب، فضلاً عن أن هذا الجمهور قد سئم الطرح الوعظي التقليدي الذي يسرد قصص خيالية ليس لها تمثل على أرض الواقع حالياً، فقد سئم الناس العيش على تراث الماضي، وقدواته المثالية، ولم يعد الجيل الجديد يرغب بسماع تلك القصص والروايات التي لا تنسجم مع واقعه.

من جانب آخر فإن الطروحات النفسية الترفيهية التي يقدمها الكيالي (وكذلك الأمر مع شحرور) تبث الطمأنينة والارتياح النفسي لدى الجمهور، فحين يقول الكيالي إن جميع المسلمين سيدخلون الجنة حتى لو أنهم لم يؤدوا الطاعات المفروضة، ولم يلتزموا بالعبادات، وحين يشطب على الآية التي تقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1]، نافياً أن تكون (إلا) أداة حصر، جاعلاً إياها نافية! فإن الجيل الجديد التارك للطاعات، والمتخلي عن العبادات، يجد في هذا الطرح خلاصاً نفسياً

(1) الذاريات: 56.

من الشعور بالذنب فينجذب لهذا المغناطيس الساحر رغم كونه دجلاً بواحاً. يساعد في ذلك سكوت غالبية جهابذة التفسير واللغة عن فضح هذه التأويلات المنحرفة انحرافاً واضحاً ومفضوحاً.

وما يحز في نفسي ويحزنني أن كثيراً من الانتقادات التي توجه للكيالي ولتأويلاته المنحرفة تلاقي ردوداً قاسية ووقحة من جمهوره، وهذا أمر مؤلم حقاً، إذ نجد شباب الأمة وشاباتها غير قادرين على تمييز الحقيقة من الدجل والكذب، حتى لو حاولت إفهامه الحقيقة بأنصع الأدلة وأقواها، فإنه يُعرض عن أدلتك، ويرد عليك بكلام سفيه، هذا أمر مؤسف حقاً.

من جانب آخر فإن أغلب الفضائيات في عالمنا العربي تبحث عن الغريب والمثير لكي تماشي رغبة الجمهور الأوسع الذي هو من طبقة متدنية ثقافياً، فتعمل غالباً على استضافة ذلك النوع من الناس الذين يلاقون ترحيباً من الجمهور محدود الثقافة، الذي يستمتع بالتهريج، وتروج له في برامج طويلة عريضة، وحلقات تلفازية كثيرة، دونما تفحص أو تدقيق في مؤهلاته، ودونما شهادة متخصص علمي متمكن، علماً أن أكثر كلام أمثال هؤلاء تكرار لمعلومات أغلبها مزيف، وتفاسير أكثرها منحرف، ومخالف للمقصد الذي يقرره معهود اللغة وصريح الكلام.

إنها مأساة ثقافية تعيشها أمتنا إلى جانب مآسيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية...، هذه المآسي التي تدفع بالأمة إلى أحد طريقين: **الأول**: التَّزمتُ والتشدد الديني التكفيري الداعشي، الذي يعتبر غيره كافراً حلال الدم، **والطريق الثاني**: تحلل وانحلال، وخلع من ثقافة الأمة ودينها الصحيح، إلى دين مزيف، وثقافة مزيفة، يضعها شحرور والكيالي وأمثالهم باسم التجديد، وباسم التقدمية، وبين هذا وذلك يقف المجددون المخلصون لا يجدون داعماً ولا مستجيباً، إذ يحاصرهم القريب والبعيد لكونهم إنما يتمسكون بالإصالة، والوصل الصحيح، مع تراث الأمة وثقافتها الأصيلة، ورسالتها الحضارية التاريخية.

إن طغيان الفوضى (الخلاقة) التي بثها أعداء الأمة في صفوفنا رغماً عنا، مستغلين جهلنا وتقاعسنا، وضعف همتنا، في زمن تعاون فيه أغلب حكامنا مع الأعداء، تأميناً لعروشهم، هذا الطغيان سيأخذ مداه دون شك. وليأخذ مداه لتتنقى الأمة من فساد الفاسدين، وتتطهر من رجس الظالمين، وتتبصر شأنها بعد عمى يأتي به المضلون المكذبون.

لا بأس ليأخذ هذا الطغيان مداه، فأهل الثقة بالله غير مبتئسين، إذ نعلم أن دهوراً من أمثال هذا الطغيان والانحراف قد سادت في عصور تاريخية مديدة مضت ثم بادت، فالله غالب على أمره. منَّ جل شأنه علينا بحفظ القرآن، وشمله بعنايته القدسية من التحريف والزلل، مهما أرجف المرجفون، وزاغ الزائغون.

فيما يلي من هذا الكتاب سوف أقدم في الفصل التالي ما أراه صحيحاً بشأن العلاقة بين العلم والقرآن، وما أجده رؤية ومنهجاً مقبولاً لمعالجة البيان العلمي للقرآن، وفق الأصول الصحيحة الرصينة التي تحفظ للعلم قيمته، وللقرآن الكريم مكانته القدسية الرفيعة، فإن أصبت فلي أجر، وإن أخطأت فلعل الوعاة يصححون لي الأمر، ويسددون لي الرؤية، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الثاني

المنهج العلمي لتفسير القرآن

سأقدم في هذا الفصل الخطوط العريضة لما أراه المنهج العلمي الصحيح للتعامل مع القرآن الكريم، على سبيل اكتشاف إشاراته العلمية وفهمها.

وفي هذا المنهج قواعد وأصول يجب اعتمادها من أجل توخي الأمانة العلمية، فضلاً عن إتقان العمل فيما هو معروف من العلم، وما هو مفهوم من دلالات اللغة. ومن الجدير بالذكر أن نفراً من الناس قد استهواهم طرح آرائهم في تفسير القرآن، وإظهار وجوه البيان العلمي لآياته، دون أن يكون لهم باع تخصصي في هذا الشأن، ودون أن يجهدوا أنفسهم في تحري الحقيقة، فخبطوا خبط عشواء، فأساءوا الفهم، وضلوا وأضلوا.

كما سأبين في هذا الفصل الأهمية العملية للبيان العلمي لآيات القرآن الكريم، وتأثيرها الفعال في هداية بعض الناس إلى الطريق الصحيح، ودورها المهم في مواجهة الإلحاد وحجج الملحدين خاصة، وقد شاع في هذا العصر أن العلم يدعو إلى الإلحاد! والحق أن العلم يدعو إلى الإيمان دون شك، إنما استخدام العلم، وتدليس حقائقه، قد يوحي أحياناً بأنه يدعو إلى الإلحاد، وفي الأمثلة التي قدمتها في آخر هذا الفصل، دليل على ما أقول، ففي هذه الأمثلة وقائع تكشف أن كثيراً من دوافع الإلحاد هي جهل بالحقائق، أو بعد عن التفكير الصحيح، وافتراض المطلقية حقائق العلم واكتشافاته.

أرجو أن يكون في هذا الذي أقدمه هنا فائدة حقيقية لأولئك الساعين إلى كشف الحقائق، والإفادة من فهم صحيح للقرآن الكريم وخدمته.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

البيان العلمي للقرآن وكيفية التعامل معه

وجوه البيان القرآني كثيرة، ومصادره عديدة، فمنها ما هو في نظمه لغة، ومنها ما هو في جمع جُمله واتساقها تركيباً، ومنها ما هو في مضمونه من المعارف والعلوم الكثيرة التي لا يحصرها أحد.

وقد جاء العلم في القرآن على مراتب شتى، فمنها ما هو على مرتبة الجملة (وهي مجموعة الآيات، أو الآية الواحدة أو بعض الآية)، ومنه ما هو على مرتبة الكلمة، ومنه ما هو على مرتبة الحرف الواحد، بل إن من العلم القرآني ما هو على مرتبة الحركة، وقد قدَّم المفسرون القدامى أفضل ما وسِعه علمهم لتفسير القرآن، مستعينين بالمأثور من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقوال الصحابة الكرام، وأقوال التابعين وتابعيهم، على النحو الذي وَعوهُ منه على أزمانهم.

أما في هذا العصر الذي نحن فيه، فإن العلم الاستنباطي (الطبيعي) قد أخذ مداه، وتطورت وسائله العملية والنظرية، بما يجعل نظرية العلم وطرائقه مرقاة للمعرفة الصحيحة عن العالم المادي، وما يحويه من قوى وطاقات وخصائص. أما المحذور في هذا العلم المعاصر من المعارف التخمينية غير الدقيقة، فإنه معروف أو يكاد يكون معروفاً، إذ توثقت أصول المعرفة الاستنباطية في جميع وجوهها وفروعها. وسنأتي على تفصيل هذه المسألة في الصفحات التي تلي لاحقاً.

لكننا الآن نتساءل: ما أهمية الفهم العقلي والبيان العلمي للقرآن في هذا العصر، وهل من ضرورة ملحة لهذا الأمر؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن المعارف العلمية الاستنباطية شهدت خلال القرون الثلاثة الماضية تطوراً كبيراً أثبتت مصداقيتها العملية من خلال الكثير من الشواهد التطبيقية، مما جعل فريقاً كبيراً من الناس يلجأ إلى هذه المعارف والعلوم، ويعتبرها غاية لا بديل عنها. فيما يرى هذا الفريق من الناس أن المعارف التي جاءت

بها الأديان (ومنها القرآن بزعمهم) لا تعدو أن تكون برامج إصلاحية، جاء بها مصلحون اجتماعيون، قدموا في أزمانهم خلاصة أفكارهم المتقدمة على عصرهم من أجل إصلاح البشر وتنظيمهم، وفقاً لسياقات حياتية أكثر نفعاً! ويبررون الجانب الغيبي في الأديان على أنه الوحي الذاتي الذي تقرره محدودية العلم والمعرفة العقلية في تلك الأزمان، إذ كانت هذه المعرفة قاصرة عن إدراك الأسباب والمسببات التي تختفي وراءها ظواهر العالم، بل يظن البعض أن الإيمان بالغيب هو امتداد لمرحلة السحر والأساطير القديمة، ويرون أن الإله هو اختراع إنساني فرضته الحاجة النفسية للإنسان، يلوذ به هرباً من غوائل الطبيعة ومفاجآتها، ليوفر بذلك نوعاً من التطمين الذاتي للإنسان! أما الحياة بعد الموت فيرى فيها هذا الفريق من الناس الذين أُخذوا بمنجزات العلم والمعارف الاستنباطية، إشباعاً لغريزة حب البقاء من خلال الامتداد الزمني، والديمومة، وعشق الخلود، الذي هو حاجة نفسية إنسانية بنظرهم.

إن أهم العوامل التي تدفع هذا الفريق من الناس إلى الضلالة والاعتقاد الخاطئ أن معطيات العلم والمعارف الاستنباطية هي نتائج نهائية، وأن صحتها قطعية غير قابلة للنقض أو التبديل، فظنوا أن ما يتوصل إليه الإنسان بالفكر والتجربة إنما هو حقائق مطلقة وكاملة لا سبيل إلى تغييرها.

ولقد حكمت هذه الرؤية عقول كثير من مفكري القرن الثامن عشر، والتاسع عشر، الذين تصوروا أن المعرفة العلمية قد توصلت إلى حل معظم مشاكل ومسائل العالم، ولم يتبق إلا القليل من الألغاز والمستغلقات التي ظنوا أن تطور العلوم سيكون كفيلاً بحلها. وهي الرؤية الفلسفية المسماة بالعِلموية، فانحسر الاتجاه الإيماني في كثير من بقاع العالم، وصار الإنسان فريسة للضياع والحيرة مع هذا العالم المادي، وكاد الاعتقاد الإيماني ينحصر في زوايا صغيرة معزولة، ليمثل بقايا التخلف والرجعية والانعزالية، فيما أطاحت بالعالم موجة من الفكر الإلحادي الذي سموه -تجمّلاً- بالفكر العلمي، وهو أبعد ما يكون عن العلم والعلمية. وإزاء هذا التيار الإلحادي

العارم وقف الرهط الإيماني عاجزاً عن المقاومة والتصدي، خاصة وأن هذا الرهط كان يفتقد المعارف العلمية اللازمة للمواجهة، فهو قد عاش وترعرع بعيداً عن انفجار المعرفة العلمية، وتداعياتها الفلسفية.

لكننا في هذا العصر وإزاء ما تقرر من معطيات جديدة في العلم، والمعارف الحديثة والمعاصرة، التي جاءت بها الثورات العلمية التي تفجرت في مطلع القرن العشرين، نجد أنفسنا أمام تحد جديد يستفزنا إلى منطلق متجدد، يتخذ العلم نفسه وسيلة وسلاحاً مضاداً للتصدي للتيار الإلحادي، والمعارف والفلسفات الضالة، فليس هنالك ما يجعل العلم مناقضاً للدين، ولا ما يجعل الدين مناقضاً للعلم، إلا تلك الخرافات التي تسربت إلى الدين والفكر الديني من مصادر بشرية، بعضها بقصد وبعضها الآخر دون قصد، وهي كلها ليست من الدين الحق في شيء.

ولعل في الصورة التي قدمها كَتَبة (سفر التكوين) ما يبرر مثل هذا التناقض بين العلم والإيمان، ولعل في موقف الكنيسة من أفكار **يوهانس كوبرنيكوس**، **وغاليليو غاليلي**، ما يبرر النزعة المتضادة بين العلم والإيمان، إلا أن هذا كله ليس موقف الدين الحق، ولا هو قول القرآن في العلم والعلماء، بل هو موقف العقائد المنحرفة لأولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه فيضِلُّوا ويُضِلُّوا.

ومن المؤكد أن الدين يقع في مواجهة مع العلم متى ما جمدت معارفه، وتوقفت استنباطاته المتأثرة بثقافة العصر، وصار الناس يقولون: ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[1]، فهذا الجمود سيورث التخلف، وبالتالي يصطرع مع العالم المتحرك. نعم هنالك ثوابت، وهنالك متحولات، وعلينا أن نميز بين ما هو ثابت، وما هو متحول. وهنا يبرز السؤال: كيف نوفق بين المبدأ المقرر بالوحي المنزل يقينياً وبين الاستنباط الظني؟ هل نعتمد ما نتوصل إليه بالعقل معياراً للحكم على النص؟ وبذلك

(1) المائدة: من الآية 104.

نعطل نصاً ونُعمل آخر، فنؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض؟ أقول: لا، لكننا لو نظرنا إلى ما في الوحي المنزل من عند الله، لوجدنا أنه يتضمن أصولاً صحيحة دوماً لا تقع في تناقض مع العلم أبداً؛ لأن الله تعالى يُحكم آياته.

أما ما يحصل من تناقض ظاهر فمردُّه أمران:

الأول: فهم خاطئ للنص النقلي من خلال تفسير خاطئ.

الثاني: توصل خاطئ أو ناقص في العلم العقلي نفسه.

وكلا الأمرين وارد، وقد شَهدت القرون الماضية من معرفة الإنسان ما حصل فيه كلا الأمرين، وسنعرض أولاً جانباً من تطور المعرفة العلمية الفيزيائية لكي نقف من خلال ذلك على آليات حركة المعرفة العلمية، ثم نعرض لبعض الحالات التي وردت في بعض التفاسير، لنبين أن مصدر الخطأ التفسيري ليس النص، وإنما ما دخل عليه من معارف أخرى خارجة عنه. بعد ذلك سنقول كلمتنا في المنهج الذي ينبغي اتباعه للوصول إلى الفهم الصحيح.

إن المعرفة العلمية الحديثة والمعاصرة التي تكشفت منذ مطلع القرن العشرين قد أكدت المسلمات الأولية التي جاءت بها السماء من خلال الوحي الرباني إلى الأرض، وأثبتت منطلقات هذه المعارف صحة التوجه الإيماني، كما أثبتت الإنجازات العلمية والتقنية اللاحقة التي استثمرت نتائج تلك المنطلقات سداد التوجيه العقائدي الرباني على صعيد البيئة والمجتمع. فالإنجازات العلمية للتكنولوجيا الصناعية غير الموجهة بالارتباط الإيماني صارت وبالاً على الطبيعة والمجتمع، وأصبح كثير من الناس في قلق على مستقبل كرتهم الأرضية من مخلفات الحضارة الصناعية، والجشع الواسع الذي تتسم به حضارة الاستهلاك، فضلاً عن الآثار الاجتماعية الخطيرة التي خلّفها ارتباط الإنسان بالآلة والماكنة، وذلك الاعتماد المتزايد عليها في تحقيق الرفاه والسعادة الفردية والجماعية، هذا الرفاه الظاهري الذي يخفي وراءه عبودية الإنسان لحاجاته، ونهمه المتزايد لإشباعها دون جدوى.

لقد أثبتت وقائع التاريخ القريب ووقائع العالم المعاصر أن تطور العلم واستخدام نتائجه وثمراته بصورة غير موجهة وغير منضبطة يمكن أن يجرّ كثيراً من الدمار على الأرض وسكانها، وعلى كافة الصُعد؛ الصحية والاجتماعية والذاتية الإنسانية، إذ إن إشباع الحاجات عندما يصبح غاية بحد ذاته، فإنه دون شك يكون غاية لا تدرك، فإشباع الحاجات المادية للإنسان لا يصل الى نهاية، ولن يتحقق الرضا في ذات الإنسان ما لم تكن هنالك عقيدة يسير وفق هديها، وإلا فإنه سيكون حيواناً شرهاً لا تحدّ أطماعه حدود.

قلنا إن المنطلقات العلمية التي تكشّفت في بداية القرن الماضي قد أكدت المسلمات الأولية التي جاءت بها السماء، وفي هذا الصدد نشير الى الملاحظات الأساسية التالية عن المعرفة والوجود الإنساني:

أولاً: إن معرفة الإنسان مهما بلغت فهي قاصرة عن الكمال، وقاصرة عن القطع المحتوم والنهائي في كثير من المباحث العلمية، ولكي تتضح هذه الحقيقة المستقرأة من تاريخ المعرفة نقول: إنه حتى نهاية القرن التاسع عشر كان معظم علماء الفيزياء يعتقدون بكمال المعرفة العلمية التي حصلوا عليها، وكانوا يظنون أنهم قادرون على تفسير جميع الظواهر الطبيعية التي يصادفونها اعتماداً على ثلاث ركائز علمية هـي:

أ. علوم الميكانيك، والجاذبية، وحركة الأجسام، ممثلة بقوانين **نيوتن**، وما تم استخراجه منها.

ب. علوم الحرارة، والانتقال الحراري، والقوانين المتعلقة بها.

ج. علوم الضوء والبصريات، ممثلة بنظرية **ماكسويل** في الموجات الكهرومغناطيسية، ومعادلاته التي انبثقت عنها علوم البصريات الحديثة.

وقد عُرفت هذه العلوم تحت مظلة واحدة في ما سمي الفيزياء الكلاسيكية Classical Physics، وفلسفياً قامت هذه الفيزياء على نفس الأسس الفلسفية العامة لليونان، والتي تشتمل على القول بالمبادئ التالية: قدم العالم (الكون) من حيث

أن لا بداية له في الزمان ولا نهاية. والاستمرارية في بنية الأشياء وتركيبها، والثبات والانتظام والحتمية في تصرف قوانين الطبيعة، ووجود الزمان والمكان المطلقين.

إلا أن هذه الفيزياء واجهت في نهاية القرن التاسع عشر معضلات مختلفة، اشتركت فيها جميع هذه العلوم، تمخضت عن حلول جذرية فرضت نفسها، فغيرت المفاهيم السائدة، وجاءت بمعادلات جديدة، وابتدعت أصول تعامل علمي جديدة لم تكن معهودة سابقاً. فجاءت نظرية النسبية الخاصة التي وضعها **ألبرت آينشتاين** عام 1905 لتوحّد الزمان والمكان في كينونة واحدة متصلة هي الزمكان، بحيث صار الفضاء الذي نتعامل معه مؤلفاً من أربعة أبعاد: ثلاثة منها مكانية وهي المعهودة، وبعد رابع هو الزمن. ولم يكن لهذا البعد الرابع أن يكون جزءً من البنية التكوينية للفضاء، لولا ثبات سرعة الضوء، وكونها مطلقة بالنسبة إلى جميع مراجع القياس.

وكان من ثمرة ذلك التوحيد للمكان والزمان أن تم الكشف عن تكافؤ المادة والطاقة، من خلال العلاقة الشهيرة التي تقول إن الطاقة هي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء. ثم وضعت نظرية النسبية العامة التي عممت النسبية الخاصة، وأمعنت في توحيد شخوص العالم وترابطها ببعضها مع البعض الآخر، إذ كشفت عن علاقة المادة / الطاقة مع الهندسة والحركة، فتبين **لآينشتاين** أن القوة الجاذبية التي يخالها الناس صفة للمادة، هي في الحقيقة صفة لهندسة الفضاء (الزمكان). فصارت الموجودات المادية الفيزيائية نتاجاً مباشراً لخواص الزمكان الموحد الذي وجده **آينشتاين** محدباً، حيثما كان هنالك مصدر للقوة الجاذبية . وبالتالي صار التعبير عن القوة الجاذبية (أو وجود الكتلة الذي هو مصدر القوة الجاذبية في مفاهيم **نيوتن** ونظريته)، تعبيراً عن تحدّب الزمكان في ذلك الموقع أو النطاق. ولما كان الزمكان الموحد نفسه حالة تجريدية بالنسبة لنا نحن البشر، ولما كانت مُدركاتنا الحسية المباشرة غير قادرة على استيعاب وتصور أكثر من ثلاثة أبعاد مكانية، فإن فكرة الأبعاد الأربعة التي جاء بها **ألبرت آينشتاين** كانت خروجاً عن المألوف، ونوعاً من التجريد الذي يقرر ضمنياً

الاعتراف بوجود عوالم أخرى تفعل فعلها في عالمنا الحسي خارجاً عنه. فالزمكان الرباعي حالة لا يمكن تصورها، بل نتعامل معها نحن الفيزيائيون تعاملاً رياضياً ممثلاً بالرموز الصماء التي نتلاعب بها وفقاً لقواعد وأصول المنطق الرياضي المعتمدة والمثبتة، فيما نترك التصور الحسي جانباً في هذه الحالات.

كذلك فقد جاءت نظرية الكم Quantum Theory بتصورات جديدة عن تصرف المادة والطاقة والحركة في العوالم الدقيقة، عوالم الجزيئات والذرات وما تحتها، وكشفت عن قوانين جديدة تحكم العوالم الذرية، فصارت الجسيمات الدقيقة عبارة عن تذبذبات وأمواج من نوع جديد، سمي أمواج المادة Matter Waves، وفيما تتداخل الخواص الموجية مع الخواص الدقائقية في صورة تكاملية، فقد انبثقت عن هذا العلم أصول جديدة للتعامل مع العالم الذري، تمثلت بأصول نظرية الكم. ومن بعدها نظرية الكم النسبوية Relativistic Quantum Theory التي جاءت إثر الجمع بين نظرية الكم ونظرية النسبية الخاصة، فأفرزت هذه النظريات معارف جديدة ومبادئ أصيلة في النظر إلى العالم، ومنها مبدأ التجزئة والانفصال Discreteness في التعامل مع العوالم الدقيقة، الذي يقرر البنية التجزئية للعالم، بعكس البنية الاتصالية التي كانت قائمة وفق نظرية الفيزياء الكلاسيكية .

لقد ظهر أن قوانين العالم الذري تعمل بموجب مبدأ الاحتمال والتجويز في حصول الأحداث، فلا أمر محتوم ولا قطع بحصول أمر. كما ظهر أن العالم يتجدد حالاً فحال في كل وقت وآن، والأشياء لا تبقى على حالها زمانين على ما هي عليه. وبذلك انتفت عقيدة الحتم التي كانت الفيزياء القديمة (الكلاسيكية) تقررها، والتي آلت أن تجعل من قوانين الطبيعة بديلاً للإله وقدرته وإرادته، كما انتفت عقيدة الثبات والانتظام التي كانت الفيزياء القديمة قائمة على شروطها، وصارت رؤية العالم تتسم بالجدة والتغير الدائم، إذ لا يبقى شيء على حاله زمانين، كما قال بذلك

المسلمون ضمن مفاهيم وأصول علم الكلام قبل عشرة قرون[1]. وبذلك انهارت المفاهيم القديمة التي كانت تصوّر الكون آلة ميكانيكية كبيرة، تتفاعل فيها متغيرات المكان والزمان، والطاقة والمادة والحركة، بموجب قوانين حتمية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، تلك المفاهيم التي كانت أساساً لجهل وضلالة الرياضي والفيزيائي الفرنسي الشهير بيير **لابلاس**، حين أجاب عن سؤال **نابليون بونابرت** عن سبب عدم الإشارة إلى وجود الله في كتابه المعنون (ميكانيك السموات)، فقال له: «يا سيدي إن الله فرضية لم أجد لها ضرورة في عملي هذا»! نعم لم يجد **لابلاس** ضرورة لافتراض وجود الله، لأن قوانينه تقوم على مبدأ الحتم، وهي قوانين نهائية وغائية، كل شيء فيها محتوم بأجل تحدده المعادلة الرياضية، ولا مجال فيه للشك أو عدم اليقين. أما نظرية الكم فقد كشفت عن جهل **لابلاس** هذا، إذ أقرت أن التغيرات الحاصلة في المادة لا سبيل إلى القطع بحصولها إلا ضمن قدر من الاحتمال الذي تتحرك خلاله تلك المتغيرات، دون أن يكون هنالك من سبيل إلى القطع بحصول الحدث قطعاً نهائياً وغائياً.

لقد كشفت الأبحاث التي جرت خلال العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين حدوث العالم (الكون)، وأنه لا بد وأن يكون قد خُلق من عدم، بقدرة وإرادة خارجية لا يعلم العلم عنها شيئاً حتى الآن، لكنه يقرر أن الزمان والمكان حادثان، وبذلك فتح العلم الباب للتساؤل عن الأسباب والمسببات التي تقف وراء هذا الخلق العظيم، ولا زالت الأبحاث جارية بهذا الصدد، وسنفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً.

من كل هذا، ومن خلال استقراء تاريخ المعرفة العلمية، نستنتج أن معرفة الإنسان التي حصل عليها من خلال بحثه في الطبيعة هي معرفة متكاملة تنمو وتتطور كل يوم،

---

(1) هذا موضوع بحث مفصّل آخر، وقد نشرنا عنه ملخصاً في مجلة الفكر الإسلامي والإبداع العلمي التي تصدرها منظمة المؤتمر الإسلامي. انظر:
Altaie, M. B (The Scientific Value of Daqiq Al-Kalam) , Journal of Islamic thought and Scientific Creativity vol. 5.No.2, 7 - 18, 1994

وهي في تبدل مستمر باتجاه الدقة، وباتجاه التحقيق، وهذا ما يدعو الإنسان العالم إلى مزيد من التواضع أمام عظمة هذا الكون الدالة على عظمة خالقه، ليعلم أنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً، مهما بلغ منه، ومهما سيبلغ منه بعد آلاف السنين أيضاً.

ثانياً: كشفت المعارف العلمية الحديثة في علوم الإحصاء وحساب الاحتمالات وعلوم الحياة أن وجود الكون وحصول الحياة التي نحياها فيه لا يمكن أن يكون قد حصل مصادفة أبداً، ذلك لأن الفرصة المؤاتية لتكوين جزئ واحد من البروتين الذي هو قوام الحياة في الخلية الحية لا تتهيأ عن طريق الصدفة المحضة إلا بنسبة 1 إلى 10260 (أي 1 مقسوماً على 10 مضروبة في نفسها 260 مرة)، وهذا مقدار ضئيل جداً يقترب من الصفر[1]. كما أن حصول ذلك الحدث يستلزم كمية من المادة أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزئ على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين البلايين من السنوات، قدرها العالم الإحصائي السويسري **تشارلز يوجين جاي**[2] بأنها 10243 سنة (أي 10 مضروبة في نفسها 243 مرة)، علماً أن عمر الكون لا يتعدى 20 مليار سنة (أي 2 × 1010 سنة) فقط. كما كشف العلم المعاصر وخلال العشرين سنة الماضية عن حقيقة أن ظهور الإنسان على ظهرالأرض لا يمكن أن يتحقق فعلاً دون أن يكون الكون كله مخلوقاً بهذه الصيغة التي هو عليها، بما في ذلك كونه في حالة توسع وتمدد مستمرة، وهذا ما يؤكد مذهب التسخير الذي قرره القرآن الكريم، يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[3].

---

(1) فرانسيس كريك، (طبيعة الحياة)، ترجمة أحمد مستجير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1989.

(2) انظر: كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)، تأليف مجموعة من العلماء، تحرير جون كلفر مونسما، ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان.

(3) لقمان:20.

وهذا هو صلب ما يُدعى اليوم المبدأ الإنساني Anthropic Principle، والأصح تسميته مبدأ التسخير، لأن مضمونه هو ما يقصده مبدأ التسخير الإسلامي تماماً.

وإذن، فالعلم نفسه يقرر أن هذا الكون لم يخلق مصادفة، وأن نشأة الإنسان على هذه الأرض لم تكن مصادفة، ولم يكن عبثاً، بل لغاية. لكن ما هذه الغاية؟ هذا ما سنراه خلال صفحات هذا الكتاب.

ثالثاً: إن اعترافنا بأن المعرفة الاستنباطية العلمية التي نتعامل معها هي معرفة متكاملة وليست كاملة، وأنها احتمالية جوازية وليست حتمية، وأنها قابلة للتغيير والتبدل وليست ثابتة، يجعلنا في حال لا نستطيع معها الجزم والقطع بأي أمر كان في المستقبل، إذا كنا نعمل وفقاً لما يقرره العلم فقط. أما إذا كان الجهل والعنت سبيلنا، فإن بإمكاننا عندئذ أن نقول بغير ذلك. وهذا يعني أن معرفة الإنسان عن نفسه أولاً هي معرفة بالماضي، وكذا بالمثل معرفته عن الكون نفسه، وهذا ما يفتح آفاقاً أخرى للمعرفة الاستنباطية، آفاقاً لوجود معارف أخرى من نوع آخر. فإذا كنا قد أقررنا بوجود عوالم ذرية وتحت ذرية نستدل عليها بآثارها، وما يحصل لنا من مشاهدات حسية، أو تأملات عقلية رياضية، فلماذا لا نقر بوجود عوالم أخرى لا تحدها عقلية رياضية صرفة، ولا تعبر عنها المعادلات والنظريات الحاصلة في عقولنا الآن؟

إن كل شيء في العلم المعاصر يدعونا إلى التأمل، وقبول وجود المعرفة الكاملة لدى من هو أكبر من هذا العالم وهذا الكون، لدى من هو أقدر وأحكم وأعلم، ذلك الذي لا يحده مكان، ولا يستولي عليه زمان، وهو الله الحي القيوم، الذي ليس كمثله شيء، يدبر الأمر في السماوات والأرض، وهو العليم الخبير. أما نحن فلسنا سوى عُبّاد خلقنا لكي نتوسل بما سخره لنا من مكامن في أنفسنا وفي خارجها في هذا الكون لنصل بمعرفتنا إليه، وهذه هي الغاية العظمى التي يريدها الله لنا، وما أسماها من غاية إذ يتوحد الموجود مع الواجد، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قيمة العلم

ذكرنا جانباً من السمات الأساسية للمعرفة العلمية الاستنباطية، وقد يفهم القارئ من ثنايا ما قلناه تعريضاً بوضاعة العلم الاستنباطي، وقصوره ومحدوديته، إذ يجده غير كامل، أو يجده غير مستقر، يخضع للتبدل والتغير المستمر، فيفقد الثقة بمعطيات العلوم الاستنباطية، ويعرض صفحاً عن نتائجها، ويقع بذلك فريسة للجهل، إذ يخسر شطراً مهماً من مكامن وجوده، وأداة يستطيع بها التوصل إلى المعرفة بالله تعالى. لذلك لا بد أن نضع الأمور في نصابها، فنكشف عن قيمة المعرفة العلمية، ومواطن القوة والضعف فيها، ليكون ذلك دليلاً لنا إلى التعامل مع المعارف الاستنباطية التي تتعامل مع الحقائق الجزئية أساساً، والتي هي بمجملها وسيلة، وليست هدفاً.

إن استقراء تاريخ العلم والمعرفة الاستنباطية يبين لنا أن وسائل هذه المعرفة هي: التفكر والتجريب، وحصيلة التفكر هي النتاج النظري بما فيه من تصورات وصياغات نظرية، نستدل بها على الكيفيات لتفسير حصول الظواهر، وفهم الأسباب والمسببات الظاهرة، فيما يحصل من حوادث، أو نجد من أشياء في هذا الكون. أما التجريب فإنه الوسيلة التي نجسد بها الظاهرة أمامنا حاصلة كما هي في الطبيعة، ثم نختبر متغيراتها، وتأثير المتغيرات بعضها على بعض، ثم نعود إلى التأمل والتفكر فيما يحصل، فنربط بين المتغيرات بعضها على بعض في جملة علاقات رمزية رياضية، تعبر عن مضمون التجربة ومحتواها العلمي بصيغة نظرية، ليتم بذلك اكتشاف القانون الذي يقف وراء الظاهرة ويحكمها.

وحيثما لا تتوفر صيغة مباشرة ومفهومة للكشف عن العلاقات السببية بين الأحداث والمتغيرات التي تتضمنها، فإننا نلجأ إلى الفروض التي نعتقد أنها تستبطن الفعل التجريبي، وتختفي وراء حصوله بالكيفية والكمية التي يحصل بها، وهذه الفروض والمسلمات إن هي إلا تصورات وعقائد يرى الباحث ضرورة تقريرها،

لصياغة الإطار النظري الذي يختفي وراء حصول الظاهرة (أو مجموعة الظواهر)، ويعقد الأمل على أن تفسير نتائج التجريب سيكون ناجحاً ضمن الإطار النظري المقترح، فيعتبر أن نجاح النظرية بفروضها ومسارها البرهاني قائم على واقعية تحققها تجريبياً. وهذا هو الحد الأدنى اللازم للفرضية العلمية المقبولة. أما إذا تضاربت نتائج التجريب (أو الأرصاد في حالة الظواهر الفلكية والكونية)، فإن الرفض التام سيكون من نصيب تلك الفرضية، ولن تجد لها حظاً من الاعتراف العلمي. أما إذا تكاملت مجموعة الفروض لتكوين إطار نظري متسع يفسر عدة ظواهر، ويتنبأ بخواص جديدة للظواهر المفسرة، تحت شروط وظروف جديدة، أو يتنبأ بحصول ظواهر جديدة مع تحديد صفاتها النوعية والكمية، فإن الفرضية العلمية ترتقي عندئذ إلى مستوى (النظرية العلمية).

من هذا نفهم أن قوام النظرية العلمية مجموعة من الفروض الابتدائية تتركب بعضها على بعض، باتساق مع الحقائق والمعارف المقررة في العلم سابقاً ضمن مسار برهاني معين (غالباً ما يتخذ الصيغة الرياضية)، لتنتج تفسيرات نظرية لوقائع أو ظواهر حاصلة في الطبيعة، وتتنبأ بظواهر لم تكتشف بعد. وأقوى النظريات العلمية هي تلك التي تتخطى حالة التفسير، إلى حالة التنبؤ والاكتشاف العلمي التجريبي أو الأرصادي. ومن البديهي طبعاً أن تكون النظرية متسقة ذاتياً Consistent بحيث لا يمكن نقض فروضها الأولية بنتائجها.

إن الأمثلة على النظريات العلمية كثيرة في التاريخ الحديث، وفي زماننا المعاصر، فبدءاً من أرصاد **تايخو براهي** خلال القرن السادس عشر، وحسابات **يوهانز كبلر** الذي عمل معه، وخَلَفه في الأرصاد السماوية لمدارات الكواكب السيارة حول الشمس، واعتماداً على فرضيات **نيكولاس كوبرنيكوس** الذي عاش خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، والقائلة بأن الشمس هي مركز تدور حوله الكواكب السيارة في مدارات دائرية، وحسابات **غاليليو غاليلي** خلال القرن السابع عشر لحركة الأجسام

الساقطة سقوطاً حراً، من كل ذلك تشكلت الأسس الصحيحة للمعالجة التجريبية، والنظرية للظواهر في الطبيعة والكون.

وتعتبر أعمال **غاليليو** بداية العلم الحديث، على الرغم من السبق الذي كان لغيره في هذه الدراسات، وخاصة أعمال العلماء المسلمين، إلا أن تلك الأعمال والدراسات اتخذت الصيغة الوصفية، ولم تعن بما يكفي بدراسة الصفات الكمية، بل اكتفت بالوصف النوعي للحركة. واعتماداً على حسابات **يوهانز كبلر** الأرصادية، وأفكار **غاليليو غاليلي** النظرية والتجريبية في الحركة، استطاع **إسحق نيوتن** في نهاية القرن السابع عشر صياغة نظرية متكاملة في الحركة الحرة، والحركة تحت تأثير المجال الجاذبي، ومن خلال هذه النظرية تم استنباط أشكال ومقاييس الحركة الكوكبية للسيارات حول الشمس، وتم حساب تعجيل الأجسام الساقطة سقوطاً حراً على الأرض، كما تم حساب مدار القمر حول الأرض، وجميع الأجسام الفلكية ضمن النظام الشمسي، بما في ذلك المذنبات كمذنب هالي المعروف. وبذلك اكتسبت أعمال **نيوتن** الشهرة المعروفة بحق، لأنها فسرت كثيراً من الظواهر الفلكية والوقائع الأرصادية، ووضعت المعادلات الرياضية اللازمة لها، كما تنبأت بمجمل حركة النظام الكوكبي الشمسي، بما في ذلك توقّع وجود كواكب أخرى لم تكن مكتشفة على عهد **نيوتن** نفسه. ومن خلال هذه التوقعات تم اكتشاف كوكبي أورانوس ونبتون، ثم تم في النصف الأول من القرن العشرين اكتشاف كوكب بلوتو عام 1937م.

وكذا بالمثل جاءت نظرية **جيمس كلارك ماكسويل** خلال القرن التاسع عشر حصيلة لتراث نظري وتجريبي طويل، عمل خلاله الكثير من الباحثين على مدى القرن الثامن عشر كله في دراسة خواص الظواهر الكهربائية والمغناطيسية، في محاولة للكشف عن صفات وكيفيات حصول هذه الظواهر، ومعرفة متغيراتها حتى توصل **ماكسويل** لتنظير جميع الصفات، وتفسيرها، واكتشاف القوانين العامة التي تحكمها في إطار نظري شامل وموحد هو «النظرية الكهرومغناطيسية»، والتي

فيها تم توحيد متغيرات المجالين الكهربائي والمغناطيسي في كينونة واحدة هي المجال الكهرومغناطيسي، والذي استطاع **ماكسويل** بواسطته تفسير خواص الضوء، والظواهر البصرية، بموجب حسابات كمية جاءت متطابقة مع التجربة، مما أكد للناس في ذلك الوقت أن الضوء هو موجات كهرومغناطيسية.

لقد حققت نظرية **نيوتن** في الحركة الميكانيكية، وقانونه في الجاذبية، ونظرية **ماكسويل** في الكهرومغناطيسية، نجاحات فائقة في التعامل مع العالم المحسوس، أي العالم الجهري كحركة الأجسام على الأرض، وحركة القذائف، وحركة الكواكب، وصفات الضوء، وظواهره المعروفة، كالانعكاس والانكسار والاستقطاب والتداخل والحيود، مما جعلها تتصدر أصول المعرفة الفيزيائية لفترة طويلة من الزمن. إلا أن هذه النظريات واجهت معضلات كبيرة عندما نُقل التعامل من العالم الجهري (الكبروي) Macroscopic، إلى العالم المجهري (الأصغري) Microscopic، فلم تستطع هذه النظريات تفسير الظواهر المجهرية التي لوحظت على صعيد الجزيئات والذرات، كما لم تستطع نظرية **ماكسويل** تفسير تفاعل الإشعاع مع المادة ضمن التطور الموجي للمجال الكهرومغناطيسي، ذلك التطور الذي يشكل عماداً مهماً من أعمدة النظرية الكهرومغناطيسية .

جاءت فرضية **ماكس بلانك** عام 1900 برؤية جديدة للإشعاع الكهرومغناطيسي، فجعلته رزماً منفصلة من الطاقة، بدلاً عن كونه مجالاً متصلاً، كما جاء نموذج **نيلز بور** عام 1913 بتصور جديد للذرة، يقوم على فروض جديدة، ومسار برهنة جديد، ومفاهيم جديدة تكاملت مع فرضية **بلانك** لتفسير الحركة الذرية، ومقادير إشعاع الطاقة وامتصاصها في العالم المجهري.

كما جاءت نظرية **آينشتاين** في النسبية الخاصة لحل جانب من المعضلات العملية التي واجهتها بشكل مشترك نظرية **نيوتن** الحركية، ونظرية **ماكسويل** الكهرومغناطيسية، وتلك هي معضلة الأثير.

وما أسفرت عنه تجارب **مايكلسن ومورلي** من فشل في الكشف عن وجود ذلك الوسط الافتراضي اللازم لنقل الموجات الكهرومغناطيسية في الكون، والمرجع الحركي المطلق واللازم لاستتباب نظرية **نيوتن** على أصول مرجعية حركية مطلقة تقاس نسبة إليها الحركات.

أما فيما يخص النسبية العامة فإنها كشفت عن تنبؤات كثيرة أهمها تباطؤ الزمن بتأثير المجال الجاذبي (أو السرعة المعجلة)، وانحراف الضوء بتأثير المجال الجاذبي للشمس وغيرها من النجوم. وقد تم التحقق من تنبوء انحراف الضوء وحساب مقداره أرصادياً عام 1919، من قبل بعثة علمية بقيادة اللورد البريطاني **آرثر أدينجتون**، ذهبت إلى جنوب إفريقيا، ورصدت ذلك الانحراف خلال عملية الكسوف الكلي للشمس.

لقد أعطت التجارب والأرصاد العملية تصديقاً قوياً لنظريتي النسبية الخاصة والعامة، مما جعل كثيراً من العلماء يؤمنون بمحتواهما ومسارات برهنتهما، رغماً عن المفاهيم الغريبة غير المألوفة التي وردت فيهما. أما في مواضيع فيزياء المادة، فقد تكللت أبحاث **ماكس بلانك، ونيلز بور، وفيرنر هايزنبرغ، ولويس دي بروي، وايروين شرودنجر، وماكس بورن، وآرنولد سومرفيلد، وولفجانج باولي، وبول ديراك**، خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين عن ولادة نظرية الكم التي جاءت بمفاهيم جديدة كما أسلفنا، وقد لاقت نظرية الكم نجاحاً كبيراً في تفسير عدد من الظواهر الفيزيائية الذرية وتحت الذرية، لكنها لا زالت قاصرة عن إعطاء جواب نهائي على عدد من الظواهر الأخرى، رغم تطورها إلى ما يسمى (نظرية المجال الكمي).

نستخلص من هذا أن قيمة النظرية العلمية تكمن فيما يلي:

1. إنها الدليل الصحيح إلى الكشف المعرفي الاستنباطي عن محتوى العالم،

وأساليب تصرفه، والقوانين التي تحكمه.

2. اعتمادها التسلسل المنطقي، ومسارات البرهنة المحكمة.
3. احتواؤها على وسائل للتدقيق والتحقيق، فالنظرية العلمية تحتوي دائماً على مقياس عملي قابل للرصد والتجريب، يكون حجة لها أو عليها في حالة نقضها.
4. امتلاكها أوالية تؤول إليها في الحالات الخاصة.

فنظرية النسبية الخاصة مثلاً تؤول إلى قوانين **نيوتن** في حالة السرع البطيئة، والنسبية العامة تؤول إلى قانون **نيوتن** العام في الجاذبية في حالة المجالات الجذبية الضعيفة. وكذلك يؤول ميكانيك الكم إلى الصورة الكلاسيكية عندما تكون أبعاد وكتل وحركات الجسيمات أكبر كثيراً من قيمة ثابت **بلانك**.

هكذا إذن أصبحت للنظرية العلمية أنطقة عمل، وصار تطور المعرفة العلمية كياناً بنيوياً يكمل بعضه بعضاً، مما يعطي درجة من الموثوقية عالية في التعامل مع النظريات التي تحقق الشروط العلمية، وتخضع للتدقيق العملي.

والسؤال الآن: هل تعبر النظرية العلمية عن الحقيقة؟

إن هذا السؤال صار يُبحث اليوم تحت عنوان العلم والحقيقة Science and Reality، ومن أجل بحثه صارت تعقد الندوات والمؤتمرات، ومنها المؤتمر الذي عُقد في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة نهاية شهر حزيران عام 2002.

إن تاريخ العلم يخبرنا أن النظرية العلمية هي في الواقع تصور محدد ومشروط. وكل تصور قابل للتحقيق ضمن شروطه فهو صحيح، إلا أن التعبير عن الحقيقة دون شروط لا معنى له ضمن دائرة العلم الاستنباطي. لذلك فإن النظرية العلمية وهي سعي بشري لإدراك الحقيقة ضمن ظروف بشرية محدودة.

القرآن والعلم

لقد ندب القرآن الكريم إلى الفكر والتفكر، وحث الناس عليه في مواضع كثيرة، إذ أنزله الله تعالى لهداية الناس، وفيه آيات لقوم يعقلون، وآيات لقوم يتفكرون، وآيات للمتوسمين، وقد لفت القرآن نظر الإنسان إلى الكون بما فيه من مخلوقات حية وغير حية، وبما فيه من جبال وأنهار، وأشجار وأحجار، وكواكب وأقمار، ونجوم وليل ونهار، واحتوى في ذكره لهذه الموجودات بعضاً من صفاتها وخصائصها. أنزله الله تعالى بلغة محكمة تجعله قابلا للفهم والقبول على مر الأزمان، ومهما اختلفت مستويات الاستيعاب العقلي للناس، ومهما تطورت معارفهم وعقولهم.

وهدف الوحي تثبيت العقيدة الصحيحة، وإحكام الشريعة الحق، رحمة للعالمين من أن يأخذ بهم الهوى والجهل إلى المهاوي والمهالك، فهو إذن نفحة وهداية من الله تعالى، يسترشد بها الإنسان طريقه في هذه الحياة ليسعد بها، ويحقق غايتها الأسمى، وهي الوصول إلى معرفة الله تعالى، وإلى جانب المحكم من آيات الله المنزلة في كتابه العزيز، أنزل آيات متشابهة. لحكمة قرّرها، ولكي يميز الخبيث من الطيب، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾[1].

فهذه الآية الكريمة فصلت منهجاً للتعامل مع القرآن وآياته، على العالم والمفكر أن يتدبرها ليعلم كيف يتعامل مع آي القرآن، وكيف يقف أمام المتشابه منها والمحكم. والقرآن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الآية العظمى، قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾[2].

(1) آل عمران:7.

(2) العنكبوت:49.

والقرآن ليس كتاباً علمياً متخصصاً، ولا هو معجم أو قاموس لعلوم معينة، ولم يكن الرسول المصطفى الذي بلّغه للناس عالماً مختصاً، أو فيلسوفاً، بل لم يكن يخط الخط، أو يقرأ من قبلُ أبداً، لنتأمل هذه الآيات، قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[1].

لقد وردت مفردة علم في القرآن (80) مرة، ووردت مع مشتقاتها (765) مرة، وأشهد الله تعالى على وحدانيته وقسطه أولي العلم قارناً إياهم بنفسه جل شأنه وبملائكته، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[2]، كما أشهدهم على أن القرآن هو الحق، فقال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾[3].

وجعل الله العلماء خير من يخشاه حق خشيته، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[4].

وقد رفع سبحانه شأن العلماء، فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[5].

---

(1) العنكبوت: 48 – 51.
(2) آل عمران: 18.
(3) سبأ: 6.
(4) فاطر: من الآية 28.
(5) المجادلة: من الآية 11.

كذلك نقول بثقة إنه لا توجد أية مشكلة بين القرآن والعلم، مثلما هو عليه الحال مع التوراة والإنجيل المرويّة بألسن مختلفة، ولذلك لم يحصل أي خلاف أو صراع بين القائمين على أمور الدين، والعاملين في مناهج العلم والتفكر العلمي على ما مر من تاريخ الإسلام، أما ما يُثار أحياناً من تناقضات بين العلم والقرآن فمردها إلى الجهل، وعدم الفهم.

والعلم علمان، **الأول**: علم استنباطي، عقلي صرف، وهو ما يتوصل إليه الإنسان بالملاحظة والتجربة والتفكر العقلي، ليتوصل إلى معرفة الأسباب والمسببات، وهذا علم يغلب عليه الظن عند الاستدلال والاستنتاج والاستقراء، قابل للتغير والتبدل، كما سبق وبيّنا في الفقرات السابقة، لكنه الوسيلة العامة التي يعتمدها الإنسان العام لكشف موجودات العالم وعلله، ومعرفة خواصها، وتسخيرها لصلاحه ومنفعته. وإذا ما اتخذ هذا العلم الاتجاه الصحيح والمنهج الصحيح، فإنه سيكون طريقاً إلى معرفة الله، إذ إنه بالخلاصة بحث وتدقيق وتفكر في مخلوقات الله. ومخلوقات الله، هي آياته الدالة على وجوده، وعلى وحدانيته، وعلى كثير من صفاته سبحانه.

الثاني: هو العلم غير الكسبي الذي يأتي وحياً، وهذا هو العلم اليقيني الذي لا سبيل للخطأ إليه، ولا يعتريه التبدل والتغير، ولا يخضع للكدّ الذهني، ولا للاستدلال ولا للبرهنة، بل هو الخبر المنزّل الذي يأتي هكذا دون تدبير ولا تفكير، ولا تتدخل فيه إرادة الإنسان؛ لأنه من علم الله، قال تعالى على لسان العبد الصالح عندما حاور موسى عليه السلام: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾[1]، ثم قال له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[2].

والخبر الإلهامي يأتي وحياً من الله لعباده. يقول الحق تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[3].

(1) الكهف:68.

(2) الكهف: من الآية82.

(3) الشورى:51.

منهجنا في البيان العلمي للقرآن وشروط العمل به

نحن نعمل بعلومنا الاستنباطية في كافة المجالات الممكنة والمباحة، ونسترشد بهدي الكتاب والسنة دليلاً إلى فهم الأشياء، وإقرار الأحكام، ونجتهد رأينا ضمن إطار هذا الهدي، بعد أن نُعمل الفكر والتأمل في جوانب المسألة.

ويأتي ضمن آفاق الاسترشاد بالهدي القرآني التأمل في آياته الكونية والفلكية التي جاءت نقاطاً دالة على الطريق الصحيح، ولكي نكون على بينة منها، فلا بد من بيانها للناس سعياً إلى دعوتهم إلى انتهاج المنهج الصحيح عقيدة وشرعاً، ولكي يكون علمنا هذا منهجياً قائماً على أصول صحيحة، فإننا ينبغي أولاً أن نؤسس للمنهج المعتمد في التفسير العلمي، ثم نضع شروطاً للمفسرين، أو الراغبين في العمل بهذا الاتجاه، لتؤهلهم إلى المستوى الذي يجعلهم قادرين على الإسهام الصحيح، بما يجعل أعمالهم مثمرة، ويجنبهم الوقوع في الزلل الذي تكون عواقبه خطيرة في مثل هذه الأعمال.

ومنهج التفسير المعتمد عندي هو:

1. النظر في النص القرآني لغةً، والاستدلال بمعاني الكلمات العربية ضمن العرف اللغوي زمن التنزيل.
2. التأمل في السياق الذي نزلت فيه الآية، وفي الآيات ذات العلاقة.
3. مراجعة أسباب النزول إن ورد فيها أثر ثابت صحيح وفق منهج علماء الحديث.
4. مراجعة التفاسير المتوفرة للآية أو الآيات موضوع البحث.
5. النظر في مبلغ موافقة العلم لما فهمناه من الآية، فإن كان العلم قد توصل إلى كشف واضح وصريح يصدّق ما جاء في آي القرآن؛ نظرنا فيه ثانية لنُحقق في مراتبه، فإن كان حقيقة رصدية أو تجريبية قبلناه، أما إذا كان توصلاً نظرياً، نظرنا فيه ثالثةً، فإن وجدناه في أصول نظرية علمية مقبولة ومحققة تجريبياً قبلناه، وإن كان استنباطاً نظرياً قابلاً للتأويل أو التحويل ضمن نفس النظرية قلنا بترشيده بهدي القرآن، فإن كان غير قابل للترشيد، أو أن أصله ضعيف، رددناه، وقلنا: الله بمراده أعلم.

6. أما إذا وجدنا في العلم ما يتعارض مع نص القرآن صراحة، قمنا بتحليل ما يقرره العلم، فإن وجدناه حقيقة رصدية أو تجريبية مباشرة تحرّينا ظروف الرصد أو التجربة، فإن كانت سالمة صراحة، قمنا بالنظر في القرآن لنجد ما يمكن أن يفسر المضمون ويزيل الإشكال، فالقرآن حمّال وجوه كما قال الإمام المرتضى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن لم نجد ما يزيل الإشكال، أرجأنا المسألة، وقلنا: الله بمراده أعلم، واعتبرنا المسألة من الأمور الموقوف بيانها على الزمن.

أما شروط ومؤهلات المفسر العلمي، فإننا نرى أنها تشمل على ما يلي:

1. معرفة متقنة باللغة العربية، وفهم دقيق لمعانيها ودلالاتها.
2. معرفة بعلوم القرآن، مع ملكة استحضار النصوص المتعلقة بمادة البحث.
3. اطلاع على التفاسير على تنوع مناهجها.
4. معرفة تخصصية دقيقة بالمسائل العلمية التي يتحراها المفسر العلمي، أو القدرة على فهم أقوال المتخصصين، والأخذ بالمعلومات من مصادرها الأصيلة.

فنحن نرى أن هذه الشروط ملزمة لكل من يقوم بتفسير آي القرآن وتدارسها من الناحية العلمية، وإلا فقد يكون عُرضة للزلل، ويخرج بتفسير يؤدي إلى إلحاق الضرر بالعقيدة أو بالرؤية الإسلامية.

ولا يظنن أحد من الناس أن التفسير العلمي لجميع آيات القرآن ميسّر، لذلك لا ينبغي أن نطلب تفسير جميع الآيات العلمية، بل ينبغي دوماً أن نتوقع وجود عدد من الآيات مما لا نستطيع تفسيره في أي عصر من العصور، وهذه صفة ملازمة للتنزيل الإلهي، فكلمات القرآن طبقات بعضها فوق بعض، وكل زمان يُجلّي طبقة منها، لتكون معجزته قائمة إلى يوم الدين.

أهمية البيان العلمي للقرآن

كثيراً ما يُثار سؤال عن جدوى العمل في البيان العلمي للقرآن، وفائدة توضيح ملامح الإعجاز العلمي للقرآن، وفي هذا السياق تظهر الأسئلة التالية:

1. لما كان القرآن كلام الله، وهو من علم الله المطلق، فكيف لنا أن نركن إلى العلوم العقلية الظنّيّة في إسناد العلم المطلق، خاصة وأننا نعلم أن العلوم العقلية هي في تطور وتغير؟.
2. وإذا كانت العلوم العقلية الظنّيّة هي في تطور مستمر، فهل نغّير تفاسيرنا العلمية للآيات القرآنية بحسب ما يكتشفه العلم؟
3. لماذا نجد أن العاملين في التفسير أو البيان العلمي للقرآن يطلُعون علينا بتفاسيرهم العلمية للآيات عادةً في أعقاب الاكتشافات العلمية، مدعين أن القرآن قال بتلك الحقائق العلمية المكتشفة قبل أربعة عشر أو خمسة عشر قرناً، في الوقت الذي لا نجد من المسلمين من يستبق الأمر ويكتشف الحقيقة من وحي ما جاء بنصوص القرآن؟
4. ما فائدة العمل بالإعجاز العلمي للقرآن بالنسبة لعامة الناس وخاصة المسلمين منهم؟

وللإجابة على هذه الأسئلة نقول: إن كون القرآن معجزاً، وإن له وجوهاً إعجازية، فهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، وقد اجتهد كثير من السلف في بيان وجوه هذا الإعجاز، لغوياً بشكل خاص، كما هو مسطور في كتب الجاحظ والجرجاني والخطابي والرماني، وعلمياً بقدر محدود فيما اجتهد فيه الفخر الرازي من بيان الملامح العلمية التي احتواها تفسيره المعروف.

نعم إن نص القرآن هو من علم الله المطلق، فيما نجد أن العلوم التجريبية هي ظنية تتغير وتتبدل، لذلك فإن من الضروري أن يتحرى الباحث في البيان العلمي للقرآن اعتماد المنهج الصحيح الذي أشرنا إليه، ومنه ضرورة معالجة المسائل العلمية التي

أصبحت بمرتبة المعارف اليقينية، كحقيقة كروية الأرض، وحقيقة دورانها حول نفسها، وحول الشمس، وحقيقة خفة الغلاف الجوي في طبقاته العليا، مما يجعل الأنفاس تنقبض عند بلوغها، وحقيقة أن النجوم هي شموس مستعرة وغير ذلك، فهاهنا كثير من المعارف العلمية التي ارتقت إلى رتبة المعرفة اليقينية، أما ما يعرض أحياناً من اللجوء إلى نظريات غير مكتملة، أو تخمينات علمية غير ناجزة، فهذا ما ينبغي تحاشيه والتنبيه عليه. لهذا السبب اشترطنا في أصولنا التي أثبتناها آنفاً ضرورة تحقق التمكن والاختصاص لدى الباحث في البيان العلمي للقرآن، وإذا ما تم ذلك، فإننا لن نلجأ لتغيير تفاسيرنا العلمية لآي القرآن.

أما لماذا تأتي التفاسير العلمية وادعاء الإعجاز بعد حصول الاكتشاف في العلوم العقلية؟ فذلك لأن أكثر العاملين في حقل البيان العلمي للقرآن هم عالة على العلوم التي يعالجونها، فهذا طبيب نفساني يُصدر العديد من الكتب في الإعجاز العلمي في الفلك، والكونيات، وعلوم الأرض، والجو والتشريح! وذلك طبيب باطني يفتي في نظرية الانفجار العظيم، ويتحدَّث عن تكوين الجبال، ونشأة المحيطات! وحتى بعض المختصين في علوم محدودة ساقتهم الشهرة التلفزيونية والصحفية إلى الخوض فيما ليس من اختصاصهم، فوقعوا في أخطاء علمية شنيعة، وهذا كله مما لا ينبغي فعله. ولو كان الرجل من أهل الاختصاص المكين، والإيمان الحصين، لكشف أموراً يهدي إليها القرآن، ولم يكتشفها العلم بعد. ولنا في هذا الذي نقوله دليل من خبرتنا العملية في دراسة أوليات خلق الكون، وفي علوم نظرية المجال الكمي، فقد اهتدينا ولله الحمد والمنة إلى أمور لم يكتشفها العلم الصرف بعدُ، لكننا أخذنا بما تعلمناه من القرآن وهذا ما نسعى لتثبيته في العلم من خلال أبحاثنا المتخصصة في نشأة الكون. وهذا المجهود هو على وجه الحقيقة ما يخدم بالفعل أسلمة المعرفة، وللحقيقة نقول إن هذا النوع من العطاء أمر ليس بيسير، بل هو نادر، ولعل شباب الأمة ومفكريها ينتبهون إلى هذه المسألة فيُعملوا التفكير فيها والتوجه إليها، بدلاً من تخدير الكسالى

بالتغني بإعجاز القرآن الكريم، والغفلة عن عجزنا الحضاري القائم.

أما بيان الإعجاز العلمي في عصرنا هذا فهو أمر جديد، يتخذ أهميته من سمات العصر نفسه، بعد أن تقدمت العلوم بشكل مضطرد، وتوسعت المعارف بشكل كبير، حتى ظن كثير من الناس أن ما يقدمه العلم الصرف هو اليقين والغاية. وكثيراً ما يُضل الناس البسطاء ببريق الكشوف العلمية، وكثيراً ما نجد بعضهم يقع في الشك والحيرة إزاء بعض آيات القرآن، فلا يفهمها، وتتزايد حيرته حين يظن وجود تناقض بين ما جاء به القرآن وما كشفته العلوم العقلية.

وأذكر أنني التقيت يوماً رجلاً كان قد بلغ منه العمر مبلغاً، وبعد أن علم مني أنني أُستاذ في الفيزياء الكونية، وأعمل في الجامعة، بادرني بأسئلة عديدة حول آي القرآن الكريم، فسألني في مسائل عديدة من القرآن، منها معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾[2]، وآيات أُخرى كثيرة، طالباً مني الإجابة من مورد العلم الصرف دون احتجاج مني بآية أو حديث! كما سألني عن إمكان وجود عوالم أُخر لا نراها ولا نحس بها، وكان يقصد عوالم الجن والشياطين والملائكة، كما سألني عن صدق الوحي وحقيقته، وطلب مني أن أُجيبه عن أسئلته بالاستعانة بالعقل والمنطق، وما يفضي إليه العلم العقلي، وكان هذا شرطه الذي لا يحيد عنه، فقبلت، ولكن كان لي شرطي أنا أيضاً وهو أنني إن استطعت إقناعه بالعقل في مسألة، قال بما أقول فيها وصدّق، فقبل بذلك. وأذكر أننا كنا نقف يومها على رصيف الشارع المحاذي لمبنى المحافظة بمدينة الموصل، وكان ذلك ظهيرة أحد أيام شهر تموز عام 1991، فقلت له: أسئلتك كثيرة، وتحتاج إلى وقت طويل للإجابة عليها، لكنني سأوجز لك الآن المقدمة، على أن نلتقي في وقت آخر، وصرت أتحدث إليه عن العلوم

(1) الكهف: 86.

(2) الرحمن:17.

العقلية، وما توصلت إليه في كشف الكون ومعرفة اتساعه، ونشأته وعمره، وعن المشارق والمغارب، ثم تحدث له عن اكتشاف العوالم الذرية، والصور الغريبة التي تكون عليها هيئات الذرات وتصرفها، ثم تكلمت معه بشي من التبسيط عن الزمان والمكان، حتى صرت إلى حال لا أذكر ما قلته له فيها، ولعل خير ما يصفها قول أبي حامد الغزالي رحمه الله:

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فانتبهت فجأة إلى الرجل وهو يصيح (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)، وأكب عليّ يُعانقني. فقلت له: ما خطبك يا رجل؟ قال: أنا رجل بلغ من العمر خمساً وستين سنة، لم يؤمن بنبي، ولا رسول، ولا بقرآن، ولا إنجيل، ولم يُصلّ لله يوماً، ولم يصُم شيئاً من رمضان ولا غيره حتى الآن، فأنا كافر ملحد، هداني الله بك الساعة! قُلت: ولكن لي حديث طويل بعد، فأنا لم أُعطك إلا أول القطر. قال لا.. هذا يكفي. دُلّني كيف يكون الإسلام؟ وسألني: هل يغفر الله لي كفري وجحودي في ما مضى من الأيام الخوالي، وأنا في هذه السن المتقدمة؟ فأخبرته بما يجب من الطهارة، وأداء الصلاة، والتكاليف الأساسية، وأرشدته إلى مسجد قريب من مسكنه، وحرضته على قراءة القرآن، وكثرة الاستغفار، وذكرت له الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[1]، ثم ذكرت له قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[3]، ثم ودعته، ومضيت في طريقي كأني أطير من الفرحة.

---

(1) النساء: 48.
(2) الزمر: 53.
(3) طه: 82.

فهذا رجل كان العلم العقلي قد سلبه نفسه، فكفر بغير العلم، لكنه لمّا وجد أن العلم الذي يؤمن به هو يحيله إلى الإيمان آمن، والله هو الذي هداه إلى سواء السبيل، وإنما جُعلت سبباً لهدايته برحمة من الله وفضل: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (1).

في مناسبة قبل هذه التقيت عام 1977 بالفيزيائي المعروف ستيفن هوكنج، الذي يتربع اليوم على عرش الفيزياء النظرية في جامعة كامبردج، وكان لقائي به أثناء أمسية أُقيمت بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الثامن لفيزياء النسبية والجاذبية GR8 الذي عقد في أروقة جامعة واترلو بكندا، حيث شاركت في ذلك المؤتمر بورقة علمية كانت جزءً من رسالتي للدكتوراه. سألت البروفسور هوكنج: هل ترى يا أستاذنا أن وراء هذه المعادلات الرياضية المعقدة التي نشتغل بها في علومنا الكونية الصرف شيئاً لا تصفه المعادلات، ولا تستطيع احتواءه؟ وفهم الرجل قصدي فقال: إن كان من شيء فلا بد أن يكون منطقياً. فقلت: ولكن هل لك أي قدر من الحدس أو الثقة بوجود شيء مما هو قوة فوق طبيعية يمكن أن تؤمن بها؟ فأطرق الرجل برهة ثم قال بشفتين مرتجفتين لضعفهما: أنا أبحث عن هذا! بعد هذا الحوار القصير تركت البروفسور ستيفن هوكنج ومضيت لبعض شأني. بعد عشر سنوات من ذلك اللقاء أصدر هوكنج كتابه الشهير «تاريخ موجز للزمن»، وبعد عشر سنوات أخرى أرسلتُ إليه رسالة نشرت نصها في ملحق كتابي (خلق الكون بين العلم والإيمان)، وفيها أدعوه ضمنياً إلى الإسلام، وقد أجابني عنها إجابة مجاملة طيبة.

وفي عام 1998 التقيت برجل دين في الموصل، كان رئيساً روحياً لطائفة مسيحية تمتد على رقعة واسعة من العراق وبلاد الشام، دعاني ليسمع مني عن البيان العلمي للقرآن الكريم بشكل شخصي، فشرعت بالحديث إليه عن العلم، وقيمة العلم في القرآن، وعن مسائل فلكية معينة، أشار إليها القرآن في صريح نصوصه، منها: تطور

---

(1) النساء: 113.

الشمس ومصيرها، وتطور النجوم وأوصافها، ونشوء الكون وتطوره ومصيره، وغيرها من المسائل التي احتوت بياناً علمياً، وكنت أقرن ذلك بالجوانب العلمية الدقيقة. كما بينت للمطران دقة القرآن في التعبير، وكشفت له عن جوانب من الإشارات العلمية في القرآن مما لم يكشف عنه العلم حتى الآن، أو مما يبدو أنه متعارض مع العلم المعاصر، مثل مسألة مصير الكون، وإزاء هذا كله كان المطران ساكتاً لم ينبس ببنت شفة، وبعد ساعتين ونصف من الحديث المتواصل من قبلي، شعرت أن من الواجب أن أسأله عن رأيه، فقلت: أرجو أن يكون حديثي هذا إليك قد لاقى صدى في نفسك، فماذا تقول في ما عرضته أمامك؟ سكت المطران برهة... وأصدر حسرة حزينة وقال: ما عساني أقول؟ إن قرآنكم مليء بالعلم، وبالإشارات العلمية والبيانية الرائعة، لكننا في الكنيسة نجد أنفسنا محرجين أمام الشباب المسيحي حين يسألنا عن بعض الفقرات والنصوص المخالفة للعلم، فلا نجد لها جواباً. إن القرآن كتاب عظيم، وفيه علم عظيم. فقلت له: ألا ترى الحق في القرآن؟ قال: بكل تأكيد، فالقرآن كله حق. لا أخفي أنني فوجئت بهذه الإجابة، لكنها شجعتني على المضي أكثر في رسالتي إليه، فقلت له: أتعلم يا أستاذ ما يقوله القرآن عن النصارى؟ قال: ماذا يقول؟ قلت إنه يقول: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]، هكذا يضع القرآن النصارى في مقام مختلف عن مقام اليهود. وهنا وجدت عيني المطران قد امتلأت بالدمع. فقلت له: وهل تعلم يا مولانا ماذا يقول القرآن بعد هذه الآية؟ إنه يقول: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2]، وعند هذه اللحظة ازداد بكاء المطران، وما

(1) المائدة: 82.

(2) المائدة: 83.

زال يبكي ويكفكف دموعه حتى اخضلت لحيته. ثم قلت له: لستَ أول من يؤمن بالقرآن والإنجيل معاً، فقبلُك النجاشي ملك الحبشة كان يؤمن بالله وبرسوله محمد، ويؤمن بالأنجيل الأصل، وبالمسيح عليه السلام، وبالأنبياء جميعاً، وفي حقه قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾[1]، حين هممت بالخروج مودعاً المطران قال لي: أستأمنك على ما دار بيننا هنا وما عرفت مني. فقلت له: عهدي معك يا أستاذ أن لا أذكر اسمك الصريح إن حدَّثتُ أحداً بما حصل بيني وبينك أو كتبته يوماً.

وفي بداية عام 2005 دعاني معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أكزتر Exeter البريطانية لإلقاء محاضرة عن (الرؤية الإسلامية لفلسفة علوم الطبيعة)، وهذه المحاضرة هي جزء من موضوع شامل أعمل فيه منذ زمن طويل، يستهدف كشف جواهر الفكر العربي الإسلامي، من خلال بعث النتاج الفكري الأصيل للمتكلمين المسلمين في مسائل ما يسمى الفلسفة الطبيعية، وما كان قد اصطلح على تسميته «دقيق الكلام»، هذا النتاج الذي أغفله الدارسون، وأهمله المشرِّعون، وعفَّ عنه المفكرون فيما مضى، وكانت المحاضرة ولله الحمد ناجحة جداً، تركت أثراً طيباً في نفوس المستمعين، وكان أغلبهم من أساتذة الفلسفة، فجرت بعد المحاضرة مناقشة طيبة أثرت المحتوى، وأبرزت القصد، وكان بين الحضور رجل بدين، ذو لحيةٍ طويلة، وشعر كث، يناهز الستين من العمر، سألني هذا الرجل سؤالاً عن أوجه العلاقة بين وحدة قوانين العالم، ووحدانية الإله في العقيدة الإسلامية؟ فأجبته بأن وحدة قوانين العالم دالة على وحدانية الخالق دون شك، ألا ترى أن الصانع يميز صنعته بصفات مشتركة تدل عليه. وبعد قرابة شهرين من محاضرتي أرسل الرجل إلي خطاباً يعرّفني بنفسه، ويذكّرني بصفته وسؤاله، ثم قال: أنا كافر! لكنني أرغب في مزيد

(1) آل عمران: 199.

من الحوار والمساءلة معك بشأن وجود الله، ورؤية الإسلام في هذا، لكنني أود أن أقول لك مقدماً بأن محاضرتك التي ألقيتها في إكزتر جعلتني أدرك أنني إذا ما قررت اختيار دين أومن به فسيكون هو الإسلام، ولو كان ذلك على فراش موتي! سررت برسالة هذا الرجل سروراً عظيماً لا مثيل له، وعزمت بعون الله على بيان الحق له، ولم أزل به حتى آمن بالله، ونبذ ما كان عليه من الكفر والإلحاد، وما كان هذا الرجل ليؤمن لولا أن هداه الله سبحانه بآياته البينات، التي جاءت كشوف العلوم العقلية لتؤيدها وتصدقها، وصدق الله العلي العظيم إذ يقول في محكم كتابه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

نخلص من هذا إلى أن البيان العلمي للقرآن سلاح ماض يمكن أن يكون في يد الداعية المسلم؛ ينافح به عن الإسلام ومنطلقاته، ويجاهد بالقرآن، وفي هذا يقول الله تعالى عن القرآن: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[2].

فللعلم جاذبية في عصر الكشوف والاختراعات، ولذلك فإن الدعوة الإسلامية اليوم ينبغي أن تتوجه إلى الناس بالعلم والعقل، وعلى الدعاة المسلمين أن يتحصنوا بالعلم إلى جانب الإيمان، ويتخذونه سلاحاً لمواجهة الجهالة والشعوذة والباطل. فالعلم الحق يؤيد الإيمان الحق ولا يناقضه، لكن الحذر الحذر من التدليس والادعاء على العلم بما ليس منه، فلا ينبغي للعاملين في الإعجاز العلمي، والدعاة الذين يبتغون وجه الله، وهداية الخلق، أن يفتروا فيحدثوا بما ليس ثابتاً أو مبيّناً في العلم بالطرق الموثقة السليمة، وعليهم أن يتحروا الدقة في القول والنقل والترجمة، ولا يأخذوا الأمور بسطحية، أو يعتمدوا على تقارير صحفية يكتبها أناس بعيدون تماماً عن الاختصاص، لأن ذلك سيؤدي إلى ارتداد الناس عن الثقة بالعاملين في مجال البيان والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، فضلاً عن ما سيقوم به أعداء الدين والتدين

---

(1) فصلت: من الآية 53 .

(2) الفرقان:52.

من تهريج ودعاية مضادة، متخذين من الادعـاءات غير الدقيقة دليلاً لهم لإثبات دعاواهم الباطلة، باتهام أهل الدعوة بالكذب والتلفيق.

ومن المحزن أن بعض الدعاة قد غره العمل والكتابة فأسهب كثيراً في الكلام، وأطال في البيان، حتى فقد التزامه بالمنهج العلمي، ونحن لا نريد لكلام في حيثيات البيان القرآني أن يكون زبداً، فحاشا كلام الله أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل الزبد ما كان من كلام المتعجلين، ورجف المكثرين، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الخلاصة والخاتمة

عرضت في هذا الكُتيب لأخطاء علمية جسيمة وقع فيها المهندس علي منصور الكيالي أثناء أحاديثه التي بها ذاع صيته في العالم العربي، واشتهر على أنه عالم فيزيائي، وباحث علمي، ومجتهد في تفسير القرآن، والإعجاز العلمي. وبينت بالحجج العلمية والإفاضة في الشروح أن ما يقدمه هذا الرجل من معلومات فيزيائية هو في واقع الأمر تزييف لحقائق علمية، ومسميات ومفاهيم في أصلها صحيح، لكنه يكيفها كيف يشاء حسب هواه، ويفسرها بحسب فهمه المغلوط، ليقوم بتوظيفها في تفسير آيات القرآن الكريم على هواه أيضاً، مخالفاً بذلك حقائق العلم واللغة والقرآن معاً.

القرآن الكريم هو كتاب هداية، احتوى حكماً على إشارات علمية مهمة بما يخص العالم الطبيعي، وتكوينه، وصيرورته، والقرآن ليس كتاب نظريات علمية، فليس هو كتاب فيزياء، ولا كيمياء، ولا أي علم من العلوم الظنّية التي نعرفها. وهدف القرآن من إلفات أنظارنا إلى المسائل الطبيعية إنما غايته هدايتنا للإقرار بوجود خالق قادر عليم، وعلى هذا الأساس ومن أجل هذا الهدف ينبغي أن يتصرف الدعاة المهديون بعد أن يفهموا جوانب العلم الطبيعي التي يتحدثون عنها، ويتوثقون من حقائق العلم المتعلقة بها، وبدون ذلك فلربما أساءوا بدعواهم إلى القرآن وفهمه، من حيث يدرون أو لا يدرون.

إن الغاية الأساسية من هذا الكتاب هو إطلاع الناس على ظاهرة تزييف العلم تحت دعوى الإعجاز العلمي، على طريقة علي الكيالي وأمثاله، وبالتالي تحذيرهم من الدجل الذي يمارسه هذا الشخص عليهم، والدعوة القائمة هنا إلى الهيئات الإعلامية هي ضرورة التحقق مما يذيعه وينشره الوعاظ وبعض الدعاة من الناحية العلمية، والتأكد من مؤهلاتهم، واستشارة المختصين بذلك.



وصية المرحوم

السيد سليمان السيد علي الرفاعي

غفر الله له ولوالديه ولذريته

هذا الكتاب:

يعرض للأخطاء الجسيمة التي وقع فيها المهندس علي منصور الكيالي في تقديمه للمعلومات الفيزيائية لتفسير بعض آيات القرآن الكريم من خلال تزييف المعلومات الفيزيائية التي جاءت بها الفيزياء الحديثة.

وهو فرصة ليس لفضح الزيف الذي يبثه الكيالي وغيره، وحسب، بل لمعرفة العلم الحق، وللتعرف على أسلوب التفكير الصحيح، وفهم العلاقة السوية بين القرآن والعلم والإنسان. لذلك فقد عمد المؤلف إلى تقديم المعلومات الصحيحة عن كل مسألة من المسائل التي تعرض لها.

كما بين الأصول التي يرى المؤلف ضرورة اعتمادها في تعاملنا مع العلاقة بين الإسلام والعلم، آخذاً بالاعتبار ثبات حقائق القرآن، وتغير مفاهيم العلم.

إن المسؤولية الاجتماعية والمسؤولية العقائدية تدعونا إلى كشف زيف المزيفين، وضلال المُضلين، إنصافاً وعدلاً مع الناس ومع العقيدة. وتأكيداً على دور الهيئات الإعلامية المسؤولة إلى التوقف عن نشر الضلال، وإفساد المعارف العلمية عند الناس، من خلال أدعياء العلم.


ISBN 978-99921970388
9 789921 970388



rawasekh rawasekh.kw
rawasekh rawasekh.kw
rawasekh.kw@gmail.com
WWW.RAWASEKH.COM
+965 90963369

